وَهْمُ شَمْسِ الْتَّبْرِيْزِي

كَيْفَ تَوَهَّمَ جَلَالُ الدِّيْنِ الرُّومِي وُجُودَ شَمْسِ التَّبْرِيزِيّ ؟

حمودة إسماعيلي



دار اكتب للنشر والتوزيع

وَهْمُ شَمْسِ التَّبْرِيْزِي

وَهْمُ شَمْسِ التَّبريزيّ

كَيْفَ تَوَهَّمَ جَلَال الدِّينِ الرُّومِي وُجُود شَمسِ التَّبرِيزي ؟

حمودة إسماعيلي

الطبعة الأولى ، القاهرة 2019 م

غلاف : مروة فتحي

تدقيق لغوي : دعاء السيد

رقم الإيداع : 2018/23086

I.S.B.N: 978-977-488-153-9



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

إِحْنَا علّمنَا الأَحِبَّة هكذا تكون المَحَبة

يا شمس لا لا لا تغيبي

في الهنا عشنا سَوِية عيشة حلوة هنية

يا شمس لا لا لاتغيبي..

أغنية نبيل شُعيل – يا شمس



أنَا هَذا وذاك

يَا إِلَهي كَمْ أنا فِي حيرَة

جلال الدين الرومي



تمهيد

شمسُ تَبرِيز

يُعَلِّمُكَ العِشْقَ لا العَقْلْ



عبر السنين، سافر رجلٌ بحثًا عن النور والجمال والحقيقة في قلوب البشر.

جالَ من مكانٍ لمكانٍ.. وانتقل من مدينة إلى مدينة.

عبَرَ الجبال والصحاري والوديان، حاملًا معه أسئلتَه، لعله يجد من يمنحه أجوبة من أعماق الروح.

رجلٌ يبحث عن جوهر الجمال في الإنسان.

عندما غادرت مدينتي

لم أعثر على أي شيخ

إنه موجود..

لكن أنا من تركتُ مدينتي لأجله

لم أجده

لكن العالم لا يخلو من المعلمين

وصل الرجل مدينة دمشق، مدينة أحباب الله المتنورين، حيث هنا يوجد رجلٌ عارف، معلمٌ ينير دروب الناس بالحقيقة، رجلٌ من نور، من جمال، يملؤه حب المعرفة، تمامًا كالرجل الرَّحال.

تضرعت إلى الله

أن يجالسني أحبابه

ويعرّفني بهم

فقالت رؤياي:

"ستكون صديقًا حميمًا لأحدهم"

سألت: أين يكون؟

جاءتني الإجابة في الليلة الموالية:

"بالأناضول".

حينما صادفته بعد ذلك قيل لي:

لم يحِن الوقت بعد، كل شيءٍ بأوانه.

تابع الرجل أسفاره، ممتلئًا بشغفه حول جوهر الأشياء ومعنى الوجود، حتى حط رحاله بمدينة قونية؛ المدينة التي شعر فيها الرجل

بانجذابٍ قوي، شعور عميق بأن رحلته الفعلية ستنطلق من هنا، نحو سماء المعنى؛ حيث الأشياء والأيام والأشخاص وكل ما بالوجود سيأخذ تحولًا جديدًا.

وإذا به جالسٌ يتأمل الناس وهي تمُر، لمح هالة تسير وحولها مجموعة من الأشخاص، انطلق الرجل نحو هذه الهالة النورانية التي تلف شخصًا يدرك الرحال أنه رجلٌ أكثر من عادي، مغناطيس روحاني يجذب من حوله.

أوقف الرجل أتباعه عندما رأى الرحال يقف أمامه، خيم الصمت على الجميع في انتظار ما الذي سيصدر عن هذا الرحال الغريب.

قال الرَّحَّال مخاطبًا الرجل:

يا إمام المسلمين..

من أعظم شأنًا؟ أبا يزيد البسطامي أم النبي محمد ﷺ ؟

أجاب الرجل دون تردد:

"النبي محمد ﷺ"

غير أن الرَّحال أراد أن يكتشف معدن الإمام أكثر..

سألته:

إذا كان البسطاميُ صادقًا في سَيره على نهج المصطفى..

لماذا لم يصنع مثله ولماذا قال "سبحاني".. بدل أن يقول "سبحانك".

حينئذٍ - ولأنه كان صافيًا ومُشرِق الروح- فهم مولانا قولي في الحال..

تناول قولي بعمق شديد.. أدرك المعنى.. أصبح ثملًا جراء عذوبة الكلام..

وبينما لم أكن أشعر بذلك.. فتلك الثمالة نبهتني لعذوبة كلامي.

كان جواب الإمام:

إن أبا يزيد سَكِر من جرعة واحدة.. وتحدث عن سراب..

وامتلأ قدح إدراكه بهذا القدر وحده..

وكان ذلك النور بقدر الكوة..

والنافذة الصغيرة في بيته..

أما المصطفى عليه الصلاة والسلام..

فكان يُسقَى سقاءً عظيمًا..

له ظمأٌ في ظمأٍ..

وكان صدرَه المُبارَك قد صار منشرحًا..

بشرح "ألم نشرح لك صدرك".

و "أرض الله واسعة".

فلا غرز أن تحدث عن الظمأ..

وكانت له في كل يوم زيادة قُربَى..

فشأن المصطفى شأن عظيم..

لأن أبا يزيد حين وصل إلى الحق..

رأى نفسه ملآنًا..

ولم يزِد في النظر..

أما المصطفى عليه الصلاة والسلام..

فكان يرى المزيد كل يوم..

ويمضي قدمًا..

فيرى المزيد من أنوار الحق..

وعظمته..

وقدرته..

وحكمته..

يومًا بعد يوم..

وساعة بعد ساعة..

ومن ثم قال:

ما "عرفناك حق معرفتك" "فسبحانك".

فَهِم الرحال بعد سماعه إجابة الإمام، أنه لمس جوهر هذا الرجل واضطلع على معدنه الخفي.

ما وراء هؤلاء العلماء البارزين..

الذائعي الصيت بين الناس..

والمُحتفَى بهم فوق منابر الوعظ..

واللقاءات الروحية..

هناك خدام الله..

يمشون في الخفاء..

أكثر كمالًا..

محبوبون حقا..

بعضهم ينفذ إلى أسرار البعض الآخر..

لكن، لا كتاب يقص حكاية هذا الحبيب.

لم يعد هناك بالنسبة للرحال سوى نزع الحجاب عن الإمام، لتتكشف المعاني الخفية.

لا تكتفِ بكونك عالمًا ربانيًا..

اطلب أكثر من ذلك..

ارغب في أن تتعدى كونك صوفيًا..

أن تكون أكبر من عِرفاني..

اطلب دائما أكثر مما يُعرَض عليك..

ارغب في ما هو أكبر من السماء.

هكذا نشأت الصداقة الروحية بين الجوال شمس والإمام العارف بالله جلال.

خرج جوادٌ من مكانٍ غير معروف

حملنا حيث ذقنا هنا العشق

وحتى لم نعد نحيا كذلك

هذا الطعم، خمر، نستقيه على الدوام

باكرًا، كي أستعد

حللت أربطة الساق

اليوم، طيّبك عرفان

على الريح ينبت

هذه الهبات من الرفيق

كساء من الجلد والعروق، معلم باطني

أرتديها فأصبح طريقة

والشيخ القطب المجاور

لا رفيق سوى العشق

طريق.. دون بدءٍ أو نهاية

يدعو الرفيق هناك:

ما الذي يمهلك حين تكون الحياة محفوفة بالمخاطر!

ادّعيت أني أثِب

لأرى ما لو أمكن أن أحيا هناك

ذات يوم علي حقًا الوصول هناك

وإلا فإن العدم سيخلُف حتى أصل

ها هنا رجلٌ مهيب

يعرض كأسًا من الخمرة

إن تجلِّي القوة فوقي

كما آمل، ليس لي!

دع العاشق خزيان

أبله، ذاهلًا

العاقل سوف يبلى الحوادث وهي تمضي لأسوأ

فدع العاشق في كونه

سلوك نبي ومظهره

أرومتنا الباطنية

هذه الخصال لامرأة لم تزل تحيا بنا

رغم أنها تختبئ مما نصير عليه.

صارت شخصية الإمام مختلفة بعد لقائه بالرحال، انقلبت حياته بعد تعرفه على هذا الرجل الذي كان "موقنًا بأن الوصول إلى الحقيقة أمر ميسور بالمتابعة والعشق.. والفيلسوف عنده حيران.. فمن ينطق بكلام سقراط وبقراط وإخوان الصفا واليونان في حضرة محمد وآل محمد ﷺ وقلبه لا أبناء الماء والطين؟ والله تعالى أيضًا حاضرًا.. الفيلسوف يصبح مُنكِرًا، أي أن كل مالا يعرفه عقله، لا يكون له وجود.. ومهما يكن من أمر فقد كان (شمس) يُعوّل على القلب ولا شيء غير القلب في إدراك المعارف الربانية، وكان يُعلي من شأن الإنسان.. يتحرك من مكان إلى مكان، لا يمسكه بلد ولا وطن، فقد كان كثير الأسفار، ولذلك سمي بشمس الطيار.

بذلك، وذات يوم طار شمس واختفى بشكلٍ غامضٍ مثلما جاء.

لستُ قادرًا أن أطالبك بالرحيل..

إذن، سأتحمل تعب السفر لأجلك..

فالفراق يُنضج الروح..

أثناء الهجر نقول:

"كيف تجاهلت ما أمرَ به و ما نهَى عنه ؟".

"كان ذلك هيّنًا، لو قورن بآلام الهجر".

أستطيع أن أرحل خمسين مرة لأجلك..

عندما أغادر؛ فلأجلك..

وإلا ما الفرق عندي..

الأناضول أو الشام..

مكة أو القسطنطينية..

لا أبالي بذلك..

لكن، هو ذاك..

الفراق يُنضج الروح..

ويسمو بها نحو الكمال.

لكن جرح الغياب لم يندمل، ولم يستطع الإمام تقبل اختفاء صديقه.

اذهبوا أيها الندام

ائتونا بالحبيب

ثم هاتوا لي من بعد

ذاك المليح الجافلا

بألحانٍ عذبة

بحجج من ذهب

اجلبوا إلى الدار

ذلك البدر حلو اللُّقا

فإن قال واعدًا:

سآتي غدًا

فكل وعده مكر

هو خادعكم هو

جم الحرارة نفسه

بالسحر والتخييل

يعقد على الماء عقدة

ويربط الهوا

بالتهليل والسرور

حين يقدم حبيبي

هلم فانظر أنت

عجائب الله تعالى

إن تألق جماله

فأين منه جمال الحسان

فوجهه شمس

تضيء القناديل أبدا

فامض أيها القلب سريع الخطو إلى اليمن

إلى حبيبي

أبلغ العقيق النفيس

مني سلامًا وإجلالاً .

لم يعد شمس سوى بعقل الإمام، تتردد فيه وصيته:

يذهب بك العقل حتى عتبة الدار..

لكن ليس إلى عقرها..

هنا، العقل حجاب..

القلب كذلك حجاب..

والرأس أيضا.

إن للعشاق آلام في قلوبهم لا يشفيها دواء، لا النوم ولا السياحة ولا الأكل؛ لا يشفيها إلا رؤية الحبيب، فإن لقاء الخليل شفاء العليل.

لم يلتقي الإمام بالرحال مرة أخرى، غير أن طيف الرحال الطيار كان يأتي ويسكنه.

فجرًا جاءني من يَغار من حسنه الملاك

مال على قلبي وبكى

بكى وبكيت إلى الصباح

سألني أيُّنا العاشق؟.. غريبٌ أمرُنا قال

كان هناك دائمًا كتابٌ مفتوح بين يدي

لكن الحب منحني ناقوسًا

ومن هذا الفم الذي لم يكن غير تراتيل

خرج سيل قصائد وغزل ورباعيات.

لم يعد أمام الإمام، سوى تتبع طريق صاحبه نحو الوجهة التي طالما أرشده نحوها، وقف وعلى أنغام الموسيقى؛ دار بحثًا عن موطن العشق، سماء صاحبه، حيث ترقص الأرواح سرورًا.

أنصت إلى الناي..

يحكي حكايته..

ومن ألم الفراق..

يبث شكايته

ومنذ قطعت من الغاب

والرجال والنساء لأنيني يبكون..

أريد صدرًا مِزَقًا مِزَقًا

برّحه الفراق..

لأبوح له بألم الاشتياق

فكل من قطع عن أصله

دائمًا يحن إلى زمان وصله..

وهكذا غدوت مطربًا في المحافل

أشدو للسعداء

وأنوح للبائسين

وكلٌ يظن أنني له رفيق

ولكن أيًا منهم (السعداء والبائسين) لم يدرك حقيقة ما أنا فيه!.

أبرز المحطات:

1- لقاء الإمام بالشيخ الرحال، ونشوء علاقة صداقة سريعة وقوية، من خلالها حث الشيخ صاحبه الإمام على أن يضرب صفحًا عن كل ما كان يهواه ويجد فيه لذة ومتعة، بل لم يسمح له – بخاصة – بقراءة كتاب "المعارف" و"ديوان المتنبي"، فضلًا عن أنه لم يكن يسمح له بلقاء أحد.. وكان يجلس بمدخل المدرسة –التي كان يلقي فيها الإمام جلال الدين دروسه– ويقول لمن يرغب في رؤيته: بأي شيئٍ جئت له به حتى آخذه منك وأقدمه له ؟.

2- الانتقال من "علوم الشريعة"» إلى "علوم الحقيقة"، وهو انتهاج مبدأ "العشق" الذي يجتمع فيه الشيخ والمُريد سواءً بسواءٍ ويصبحان رجلًا واحدًا بعد أن سلكا طريقًا واحدًا واتجها سويًا نحو غاية واحدة، فيصبح الشيخ مُريدًا والمُريد شيخًا، أو يصبحان شخصًا واحدًا بعد أن توحدت فيهما الإرادة والغاية.

3- غياب الرحال وظهوره من جديد.

4- اختفاءه الغامض.

5 - حالة الشوق وتدفق الشِّعر.

***



البَحثُ عَنْ أصدِقَاء

أنَا هُوَ أنَا

وأحدُنا كَأنَّه الآخَر



عاش جلال الدين الرومي كرجل دين ومُتَصوِف وعالم فقه، فحدث أن التقى بشمس الدين التبريزي، لتتغير حياته وشخصيته وينقلب من رجل دين - لا يختلف عن العديد من رجال الدين مثله في عصره - إلى شاعرٍ ساحر، مغناطيس ينجذب البشر نحوه بقوة، بمختلف أديانهم وثقافاتهم ومستوياتهم المعرفية والاجتماعية والاقتصادية، والأكثر من ذلك، مقاومته للزمن.. جلال ساحر بكل الأزمان.

موضوع هذا الكتاب، هو التقاطع بين شمس وجلال، مثلما هو تقاطعنا أنا وأنت.

وطالما تقاطعنا في هذا الكتاب - باعتبارنا صديقين- سنذهب للقاء أصدقاء آخرين.

وكما جرت عليه العادة وحتى لا نحرق المراحل، سنعتبر أن شمس الدين التبريزي شخصية حقيقية كانت موجودة بعصر مولانا.. فهل نذهب للتعرف أكثر على أصدقائنا؟

قبل الانطلاق، وحتى لا نتوه في البحث، ولربح الوقت والجهد حفاظًا على حيوية ومتعة نزهتنا، سترافقنا صديقة، نظرًا لدرايتها بمكان صديقينا جلال وشمس.

صديقتنا هذه اسمها "إحسان الملائكة" أخت الشاعرة العراقية الشهيرة "نازك الملائكة".

هناك العديد من الأشخاص الذين يمكنهم إرشادنا لمكان شمس وجلال، فلماذا وقع اختياري على إحسان ؟

إحسان لن تكون فقط مرافقة، إنما مرافقة ذكية ولها دراية واسعة بالمحيط الذي سنقصده.

قصة جلال وشمس، مليئة بالإضافات والتطويل والخوارق والكرامات والأكاذيب والأمور التي ستقوم بتعطيلنا.

إحسان الملائكة تطرقت لسيرة جلال الدين الرومي - بما في ذلك لقائه وصداقته بشمس- وشمل بحثها ثلاثة أمور مهمة وستنفعنا في وجهتنا:

1- إحسان محايدة، تتطرق للمسائل الصوفية بأكبر قدر من الموضوعية.

2- سيرتها عن جلال وشمس، مُنَقَّحة قدر ما يمكن من السخافات والمعجزات والخوارق، نظرًا لأن إحسان شخصية بنظرة علمية حديثة، ومنتصرة للعلم.

3 - أبرزت إحسان الشكوك حول وجود شمس الدين التبريزي، والدلائل كذلك.

بهذا يمكن الاعتماد في خطواتنا، على أرضية ثابتة، حتى نقترب من جلال وشمس بصفاتهما الإنسانية الأقرب للواقع، ومن ثمّ نستطيع ساعتها أن نتحقق من نسبة هذه الواقعية في شخصية شمس.

***

لقاء العارف

بُحتَ لي: أنا هو، هو أنا

أنت في رأسي، ورأسي في يدي



قصة جلال هي قصة كل الناس، هناك مسألة جوهرية في علاقة جلال بشمس، وهي المسألة الموجودة لدى غالبية الناس، وتبدأ بالظهور عند الخروج من مرحلة الطفولة والدخول بفترة المراهقة، لتستمر كسمة من سمات الشخصية.

ألا وهي لقاء الشخص العارف، إنسان تلتقيه ليغير حياتك للأبد.. نحو الأفضل بالطبع.

هذه المسألة هي من أساسيات المعتقدات الروحية والأديان الشرقية، بل نجدها حتى في الفلسفات المتأخرة.

الحديث عن هذه النقطة، أمر مهم لسهولة الدخول في علاقة شمس وجلال، وفهم نفسية هذا الأخير بشكلٍ أوضح، وحتى يسهل علينا كذلك رؤية من أين جاء وكيف ظهر شمس؟

كل أديان الشرق، نلمس فيها هذا السيناريو:

1 – حياة مملة وبلا هدف وراكدة.

2- ظهور العارف "شخصية كاريزيمة" قد يكون مبعوثًا من السماء أو إلهًا متجسدًا أو رجلًا حكيمًا.

3 - تبدُّل حياة كل من يلتقي بهذا العارف (بمختلف تجلياته المذكورة) خاصة إذا أحبه وآمن ووثق به هذا الذي يلتقي بالعارف.

بالنسبة للإله الذي يتجسَّد في صورة إنسان، فالأمر غير مقتصر على السيد المسيح، الأديان الشرقية مليئة بهذا المفهوم، من كريشنا إلى بوذا (بوذا قد يتجسد في امرأة)، وبحسب قوة وتأثير هذا المفهوم، فقد حدث بقرية هندية أن أسرة أنجبت طفلًا بتشوه خلقي - لم ينفصل عنه أخوه التوأم وتدلت ساقان وذراعان من بطن المولود ليبدو وكأن له ستة أيدي - فجاء الناس ليتبرّكُوا بجسد هذا الطفل لاعتقادهم (انطلاقًا من شكله) أنه تجسيد للإله "فيشنو" إسم الطفل "ديباك باسوان" وقد تم إجراء عملية جراحية ناجحة لتخليصه من تلك الأطراف سنة **2011**.

فهل سيختلف جلال الدين الرومي عن مجتمعه وثقافته وتاريخه وحضارته، بأن لا تكون في نفسه تلك الرغبة بلقاء العارف؟

الشخص الحكيم الذي يقلب حياته ويُدخل النور لروحه؟

ولتأكيدٍ أكثر، فقد تلَقّى جلال الدين الرومي تربية إسلامية صوفية، مضمونها هو هذا المفهوم، زيادة على أننا نجد في الإسلام قصة شهيرة حول هذه المسألة مذكورة حتى في القرآن.

وهي قصة النبي موسى والخضر بسورة الكهف.

هذه القصة يتم تبسيطها وتلقينها للأطفال، وأشك في أن هناك مدرسة ابتدائية بالمجتمعات الإسلامية والناطقة بالعربية لم تقم بتلقين هذه القصة للأطفال، نظرًا لطابعها التربوي وجوّها القصصي التشويقي اللّذان يخدمان عملية تقريب الدين من الأطفال.

هذا ونحن نتحدث عن هذا القرن، حيث وفرة المعلومات والمعارف والمجالات العلمية، فما بالك ببيئة مثل بيئة الرومي، يطغى على جوّها الطابع الديني التلقيني، فبالتأكيد سيكون هناك تشبع أكثر بهذه المفاهيم، وبهذه القصة بالذات.

مضمون القصة، هو لقاء موسى بشخص عارف (الخضر)، ومع أن موسى بحسب معطيات القصة، أهم شخصية ثقافية ببني إسرائيل، فإن أحداثًا بالقصة ستكشف أنه دون مستوى استيعاب ما يحدث، وبهذا يبرز الخضر كشخص يتمتع بمستوى آخر من المعرفة، كافية لقلب حياة أي شخص وجعلها أفضل.

من رسائل هذه القصة، يقول الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي في كتاب "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" الجزء الخاص بسورة الكهف: أن العلم الذي يُعلّمه الله لعباده نوعان؛ علمٌ مُكتَسَب يدركه العبد بجهده واجتهاده، وعلمٌ لَدُنّيّ، يهبه الله لمن يَمُنّ عليه من عباده لقوله تعالى: "وعلّمْنَاهُ مِنْ لّدُنّا عِلْمًا".

وهنا من السهل كشف أن العلم الأول (علم الاجتهاد) القصد به موسى، والعلم الثاني (علم لَدُنِّيّ) القصد به الخضر.

وإذا قمنا بإسقاط هذه الوضعية على جلال وشمس، سنرى بشكل واضح أن جلال مثل موسى اكتسب علمًا بالاجتهاد، وشمس مثل الخضر يتمتع بعلم لدني.

فبلقاء جلال وشمس، مثلما حدث لموسى مع الخضر، انكشف مستوى آخر من المعرفة لجلال، أدرك جلال أنه يعيش بالظلمة، وسيخرج للنور عبر شمس.. أوليست الشمس مصدرًا للنور؟!

نقطة أخرى مهمة، وهي أن الخضر رغم ما له من تأثير وشهرة بالتراث الإسلامي، إلا أنه شخصية غامضة – دون ذكر واضح من أين جاءت وكيف ظهرت – تمامًا مثل شمس؟

أجرت إذاعة آرتا إف إم، استطلاعًا حول شخصية الخضر بشمال سوريا، برزت هناك رموز مشتركة في كلام المُستَجوَبين، حول شخصية "الخوجا خضر" كما يسمونه، وهي أن:

1 – أجدادهم كانوا يستنجدون ويقسمون به.

2 – بأنه وليّ مُتجَوِل.

3 – وبأنه شرب من ماء الحياة فبذلك هو شخصية خالدة.

وهي رموز نجدها بشخصية شمس، فهو ظهر:

1 - كمنقذ لجلال من ضياعه الروحي.

2 - وكان وليًا متجولًا.

3 - وسقى جلال من ماء الحياة (العشق) الذي يُدخل شاربه في عالم الروح الخالد.

وخصائص الماء موجودة بجل التعاليم الشرقية، واستخدمها الشعراء والمتصوفة في أشعارهم وأوصافهم بمن فيهم جلال الدين، لِما تشير له من مرونة وتجدد وذوبان وسلاسة (تخدم التعبير عن الروح).

من الواضح، أن جلال الدين الرومي كــان متــشبعًا بالمفــاهيم والرمزيات المنتشرة بالمنطقة، والتي تدور حول هذه الرؤية:

لقاء "الخوجا" والخوجا لقب مُشتّق من اللغة الفارسية بمعنى السيد المحترم أو المعلم أو المربي، ويشير كذلك للأجنبي، نجده بمعنى قريب في مصر - عبر تأثير الأتراك - "الخواجه" دلالة على السيادة أو الأصول الأوروبية.

***



لقَاءُ الأصْدِقاء

أينَما وليّتَ وجهُكَ فأنتَ مَعِي

يا مَن أنتَ عينَايَ ونُورِي



وُلد جلال الدين الرومي بالقرن الثالث عشر الميلادي، 30 سبتمبر 1207م (604هـ) بمدينة "بَلْخ" بإقليم خراسان (أفغانستان حاليا).

وخراسان بالفارسية تعني أرض الشمس أو أرض مطلع الشمس، وقبل ظهور الإسلام، شهدت بلاد فارس معتقدات وأديان طغى عليها الطابع الزرادشتي.

والزرادشتية هي ديانة تقوم على قطبين؛ إله النور وإله الظلام.

ويسهل فهم أن النور دلالة آتية من إله الشمس، فالشمس هي من أقدم المعبودات بجل الحضارات البشرية؛ الأكثر من ذلك أن نبي هذه الديانة "زرادشت" يتم رسمه ونحته كرجل حكيم والشمس تطل من خلف رأسه (مثل الدائرة في رسومات المسيح والقديسين).

وبهذا نرى العلاقة بين الشمس والعارف وتاريخ خراسان وجلال الدين، فليس من السهل محو هذه المعتقدات ومنع اندماجها بالفكر

الإسلامي، وهي المتداخلة في علاقة المجتمع بأرضه وتاريخه (زيادة على أن التصوف يعتمد على أسسها).

نشأ جلال الدين تحت رعاية والده الذي كان يُعنى بالتربية الدينية، فكما تقول إحسان الملائكة: "اعتاد جلال الدين أن يتوجه يوميًا إلى مدرسة أبيه ليتزوي في أحد أركان غرفة الدرس، مصغيًا بكل جوارحه إلى ما يلقيه والده من حكم ومواعظ وأفكار ومناقشات نظرية".

وبِغَضِّ النظر عن أن الطفل بطبيعته سيُفَضِّل اللعب بدلًا من التواجد في غرفة الدرس، فهل اعتاد أم عودوه؟ ما يهمنا هنا هو التعرف على نوع التربية التي تلقاها جلال، وأثرت في تشكيل تفكيره ورؤيته للأمور.

فوالده كان رجل دين متحمسًا للصوفية، ومناهضًا للفلاسفة والفقهاء، وبحسب ما جاء في قول إحسان:

"بدأ بهاء الدين والد جلال، أَشْهَر متصوفة بَلْخ وقتئذٍ، بمهاجمة الفخر الرازي وانتقاد أفكاره الفلسفية وطرقه المنطقية.. لأن العقل (في نظر المتصوفة) عاجز عن التوصيل إلى الله، وأن الاتحاد بالمعشوق الإلهي لا يتم إلا عن طريق السلوك الصوفي من أجل بلوغ مقام السُّكر والجذب والفناء وما إلى ذلك".

وبسبب تصاعد المشاكل السياسية بالمنطقة (الخلاف بين خوارزمشاه وجنكيزخان واحتمال اشتعال حرب)، ستنتقل العائلة – وأصدقائها – من بَلْخ نحو المدن السلجوقية (تركيا حاليا)، وكان جلال الدين قد بلغ الثامنة عشر، حطت العائلة الرحال في لارنده (كارامان).. وبعد تزويج جلال الدين، تُوُفّيَت والدته، ثم شقيقه علاء الدين (يكبر جلال بعامين) ولم يتبقى له سوى والده.

انتقلت البقية بعدها لمدينة قونيا، وهناك سيتوفى والد جلال بعد معاناته من المرض.. وكان والده في قونيا قد تابع نفس نشاطه في بلخ، وذلك بإنشاء مدرسة تربوية لتلقين الدين والتصوف، وهو النشاط الذي سيتابعه جلال بعد والده.

إن مرحلة الانتقال من بلخ خراسان إلى قونيا، تتضمن صدمات عاطفية متتالية، فجلال فقد جميع أفراد أسرته، فبالإضافة للاغتراب الجغرافي، هناك الاغتراب العاطفي، فمن الصعب نفي أن هذه الأحداث لم يكن لها وقعٌ في نفسية جلال.

تَذكُر إحسان الملائكة، أن أحد أصدقاء والد جلال، حاول سد فراغ الأب، وذلك بإرشاد جلال وتلقينه أصول التصوف، رغم قصة هذا المعلم العجيبة (برهان الدين الترمذي)، فإحسان تحكي كيف تحول هذا المعلم بسبب تعمقه في التصوف إلى مخبول يتجول في الغابات لوحده، وكيف عاد بعد ذلك كشيخٍ حكيم، ليبحث عن

جلال (بسبب حلم رأى فيه والد جلال يوصيه بتوجيه ابنه)، وهذه الأمور كارثية عند التطرق لسيرة شخص ما.. لكننا سنركز على كون جلال الدين قد تزايد شغفه بمسائل التصوف بعد رحيل والده، والمُرَجَّح عبر الشيوخ معارف والده؛ لأنه سيسافر بحثًا عن التعمق أكثر في شئون الدين (تَذكُر إحسان أن ذلك كان من خلال نصيحة برهان الدين).

وكانت الشام هي الوجهة، وبعد سنوات من التنقل بين حلب ودمشق، عاد أخيرًا لقونيا.. وتجدُر الإشارة أن إحسان الملائكة لم تغفل وقائع موت زوجة جلال (قبل السفر على الأرجح) وموت معلمه برهان الدين عند عودته.

ما يمكن أن نستخلصه من هذه المعطيات (المتضاربة بمراجع أخرى)، هو رغبة جلال الدين بالتعمق أكثر في مسائل الدين، وأقصد بها هنا التصوُّف على وجه الخصوص، الذي نشأ وترعرع في مفاهيمه، زيادة على ما يحققه له هذا الجانب نفسيًا بعد فقدان أحبائه، أبرزهم والده ومعارف والده من الشيوخ، التصوف هنا هو الوطن، هو الأب، هو المعلم، هو نور الروح وشفائها بعد الأزمات.

وبالتالي نستطيع فهم العوامل النفسية التي ساهمت في خلق شخصية "شمس الدين التبريزي"، إذا ركزنا على مسألة مهمة.. وهي أن مذهب جلال الدين الرومي في التصوف سينطلق منذ الآن باتجاه

الحب، بل أقصى تجليات العشق، بما في ذلك من لوعة الفقدان، والاشتياق، وبعث مفاهيم الاتحاد وعدم الانفصال عن المحبوب، شمس سيمثل بؤرة كل ما تنشده نفسية جلال المثقَلَة بجراح الفقدان.

***

• ظهور شمس :

بحسب الصحفية الفرنسية "لِيلي أنفَار" (المولودة بطهران- إيران) ، فإن اللقاء تم يوم 9 نوفمبر 1244م (إحسان الملائكة ذكرت أن السنة 1243م) وها قد بدأ التضارب!

هناك شبه اتفاق على أن اللقاء تم كالتالي: يعترض شمس الدين طريق جلال (الذي كان يركب دابَّة أو لا.. فهذا لايهم) المهم أنه بدأ بطرح بعض الأسئلة على جلال، والأخير يجيب، شمس هنا شيخٌ تجاوز الستين من عمره، و جلال في السابعة والثلاثين (ذكر محمد السعيد جمال الدين في مقدمة ترجمة ديوان شمس تبريز أن جلال كان في الثامنة والثلاثين)، شمس شخص جوال وساخر وغير مبالٍ بالقيم الاجتماعية ويطرح الأسئلة المزعزعة للعقائد، المشهد يبدو كأن شمس صورة منسوخة عن سقراط!

هناك مشاهد أخرى حول اللقاء، غير أنها تتضمن حماقات ولقطات طفولية! منها أن شمس بائع حلويات دخل مدرسة جلال ومنحه قطعة، أكلها جلال وتبعه وغاب، حتى عاد بعد سنين بتلك الهيئة الشاعرية الرقيقة، وبمشهدٍ آخر.. دخل شمس ونظر نحو الكتب فاحترقت!

إذا كان المتصوفون يتقبلون بعض الأمور، فإنها لا تدخل العقل، وهي تتعلق هنا بشمس، مثل:

1- كيف لرجلٍ ستيني، أن يقضي حياته في التجوال (لوحده كالعفريت) والتنقل دون مستقر، دون زوجة، دون أبناء (وما لقيمة هذه الأشياء في الثقافة أو البيئة الإسلامية من أهمية)؟

والأكثر من ذلك أنه رجلٌ مُتَبَحِّر في العلم والفقه (أي بكامل قواه العقلية هذا إذا كان يتحمل صعوبة السفر)!

فهذه إما خرافة مُثيرة حول الحكيم الذي يخرج من الضباب آتيا من بلاد بعيدة (مثل "هاربارد" الساحر المتجول في مسلسل فايكينغ، وهو بالأصل شخصية أسطورية في الميثيولوجيا الإسكندنافية)؛ وإما أن شمس يبلغ من العمر السابعة عشر ويملؤه حماس التجوال واكتشاف الأراضي البعيدة (مثل الراعي الباحث عن الكنز في رواية باولو كويلو الكيميائي).

2 – كيف لرجلٍ في الستين من عمره، أن يكون همّه الوحيد في الحياة هو إيجاد تلميذ أو مُريد يمرر له حكمته ورؤاه ومذهبه الروحي (بدلًا من أن يُنجب ابنًا يرثُ علمَه وأملاكَه، وهو الأمر الأكثر واقعية بحسب سيكولوجية البشر)؟

لماذا لا يؤلف كتابًا في بيته (مثلما فعل جميع المشاهير الدينيين سواءً بتاريخ الإسلام أو المسيحية) ليستفيد منه الجميع؟ بدلًا من البحث عن رجلٍ في الشارع لتبادل أبيات الشعر لوحدهما كما لو أنّهُما هبَطَا من الفضاءِ للبحث عن بعضهما والتفاهم بلغتهما الخاصة!

3– كيف لشخصٍ لا يعرفُكَ، تقف أمامه كأنك تقرأ أفكَارَه، وتسأله بضع أسئلة، فيأخذك معه للسكن في بيته ويمنحك كل ما تريد، ويصير أشبه بالعبد لك، بل يتخلى عن كل معارفه وأقربائه وحتى أولاده لأجلك؟ فهذا هو ما فعله جلال بعد لقائه بشمس.. أيُعقَل هذا!

لجلال الدين حفيد اسمه "عارف جبلي"، ولهذا الحفيد مُريد اسمه "شمس الدين أحمد الأفلاكي"، وهناك شيءٌ مريب في تقارب الأسماء ورمزياتها.

شمس الأفلاكي هذا هو أهم مرجع لأخبار وأحداث شمس وجلال، فهو مصدر الوقائع، علمًا بأن شمس وجلال لم يكتبا شيئًا بما في ذلك المقولات والأشعار.

ذَكَرَ الأفلاكي أن شمس هو عارفٌ فارسيٌّ ظهر واختفى بشكل غامض، وهذا يعيدنا لما قاله بعض المُستَجوَبِين بشمال سوريا عن "الخوجا خضر"، بهذا يتضح أن فكرة العارف الفارسي الآتي من بعيد يلفه الغموض هي معطىً رمزي وتاريخي مؤثر بشكل قوي في عقلية هذه المناطق.

شمس تبريز أو شمس الدين التبريزي، بحسب المعطيات، ما هو إلا لقب أطلقه جلال على هذا العارف الفارسي، حيث يتغنى به ويقول:

شمسُ تبريزٍ مُطْلَقُ النور

شمسٌ أشرقت من نور المُنير

ولنحاول تفكيك رمزية هذا اللقب، فبالطبع نعلم مسبقًا ما للشمس من أهمية رمزية بالبلاد التي نشأ بها جلال، أما التبريزي أو تبريز، فهي على الغالب إحالة إلى مدينة تبريز الفارسية، كما أن إحسان الملائكة تشير إلى أن:

"الشمس بلون الذهب، والتبريز من أوصاف الذهب".

ألا يعود بنا ذلك لاستحضار الطغيان الزرادشتي على البلاد الفارسية، وانحياز المجتمع لقطب النور بطبيعة الحال، لتأتي مسميات المدن والأقاليم بما يرمز للشمس ونورها.

مدينة تبريز تقع بإقليم أذربيجان، وهو المكان الذي نشأ وجاء منه زرادشت،أفلا تتداخل بنا هنا المعطيات بين شمس وزرادشت؟ بحكم أنه كان من الدارج تلقيب الأجانب بمسقط الرأس، على غرار الدمشقي والأندلسي، وعلى نفس المنوال يأتي التبريزي (مثلما الرومي من الروم).

لكن يجب كذلك أن لا نغفل عن نطق الرومي لـــــ"شمس تبريز" أي بمعنى "نور تبريز" التي تشير مباشرة لـــــ"زرادشت"، أليس هو شمس تلك المنطقة التي أشرقت بنورها على الحواضر الفارسية؟

وسنُصدَم في جولتنا كثيرًا بالذهب وشمس وأذربيجان وزرادشت، كما أن الرومي في أشعاره لا يتوانى عن دمج تبريز بخراسان كدلالة للذهب والشمس، وهي تمثلات خاصة بزرادشت.

أود الإشارة لملاحظة مهمة حول الرومي ونيتشه، فجلال تطرق من خلال شمس للإنسان الكامل (العارف)، ونيتشه تمحورت فلسفته حول الإنسان الأعلى، الطريف في القصة هنا أن نيتشه اختار

زرادشت (من دون الشخصيات التاريخية) ليكون المتحدث عن هذا الإنسان الأعلى.

لماذا؟ فطبعًا بحكم أن نيتشه شاعر وفيلسوف، واهتمامه بالفلسفات والحكم القديمة، وجد أن زرادشت (حسب بنيته الأسطورية) هو النموذج المعبر.. بهذا جاء أهم كتبه تحت عنوان "هكذا تكلم زرادشت".

نيتشه عند لجوئه لزرادشت، كان تحت وقع أزمة نفسية، خصامه مع صديق عمره راي، ومحبوبته لو سالومي، دون ذكر فقدان والده بصغره وخصامه سابقًا مع من كان يسد هذا الغياب، وهو الموسيقي فاغنر، والده الروحي (وكان يرى فيه نيتشه إنسانًا كاملًا).

بالطبع عَايَشَ نيتشه حالة جنونية، وحالات صرع، وربما من أسباب تخوُّف لو سالومي منه، لأنها شاهدت واقعة لما ينتابه، وقد بعث نيتشه برسالة إليها يتأسف لها عمّا حصل له بحضورها ويطمئنها، فكيف نستبعد كون الرومي قد عَايَشَ حالة نفسية صعبة أيضًا، خلق من خلالها شخصية شمس، ونتقبل بسهولة كون شمس هذا شخصية حقيقة رغم كل ما يحيط بها من خصائص أسطورية؟

ألم ينعزل الرومي عن مجتمعه وأصحابه؟ لماذا نفسر الواقعة بكون انعزاله كان مع شمس (شخصية جوالة واجتماعية ورافضة للاستقرار

والانعزال) ولا نقبل بتفسير كون الانعزال كان مسألة فردية (كانعزال نيتشه عند التأليف)؟

ويذهب المترجمون والمهتمون إلى أن مسألة الشعر لم تظهر عند الرومي إلا بعد لقائه بشمس (قبل ذلك لم يكن ينثر الأشعار).

تاريخ الشعر العالمي مليء بالمواهب التي تفجَّرَت طاقاتها الإبداعية تحت حالة جنونية أو أزمة نفسية أو عاطفية، ولا يكفي هنا المجال للتطرق لهم.

لنتخيل أن نيتشه عاش بعصر الرومي وكتب ما كتب، ألن تظهر كتابات بعده تتحدث عن نيتشه وصاحبه "زرادشت"، عن أشعار نيتشه (بحكم أنه انطلق بداية بكتابة الأشعار) ومقولاته وحِكَمه الفلسفية، وعن مقالات "زرادشت" من جهة أخرى (كتاب هكذا تكلم زرادشت)؟.

مثلما حدث بعزل أشعار ومقولات الرومي عن كتاب "مقالات" شمس.

ومع أن الشعر - في حالة الرومي - متماسك، إلا أن المقولات والمواعظ والمقالات جاءت متناقضة فيما بينها، فهي مرة مع الفلسفة ومرة ضدها، ومرة مع التسامح والحب ومرة مع التعصب ضد

الفقهاء، الأمر الذي يجعلها أشبه بالأحاديث المتضاربة التي جُمعت تحت شخصية "البخاري".

ويشير المهتمون لكون شخصية شمس مختلفة وتناقض شخصية جلال.. إذن كيف تفاهما كأنهما روحٌ واحدة؟!

نقطة مهمة تثير التساؤل هنا، فإحسان الملائكة تصف شمس - بُناءً على مختلف المراجع - بأنه:

"رجل دموي المزاج، سريع الغضب، قد يصل به الهياج مبلغًا يُفقِده صوابه تمامًا".

باختصار واضح، كان شخصية قاسية.. وذكرت إحسان أنه كان يضرب تلاميذه بالأناضول بقسوة عند تعليمهم، لكن الرومي يصفه كالتالي: "لُطفَه مُلكي.. ورقّته أيضًا". واللطفُ رداءٌ لا ينفصل عن شمس في غزليات جلال.

ومن غير المعقول، أن الشخص الذي جعل الرومي بتلك الرهافة والرقة في القول والمعنى، أن يكون بتلك الأوصاف التي تليق بمريض نفسي أقرب للمتوحش المتخلف، فهناك واقعة موت زوجة شمس خوفًا من قسوته!.

ما يعني أن شمس بالأساس غير موجود، سوى بعقل جلال الدين كرمزٍ في أشعاره..

فشمس، هو الحب، والوالد، وكشف الحقيقة والتجلي الإلهي.

عبر جلال وشمس، نُطِّلُ على تداخل مجالات مشرقية معروفة، كالعرفان والغنوص والباطنية والزرادشتية والمانوية والمزدكية والأفلاطونيات، وهي خليط مترسخ في البنية النفسية والتراثية بالمواقع التي نشأ وعاش وتثقف فيها الرومي، وتقوم بمجملها على واقعة "الإشراق الروحي" الذي يتأتى للشخص من داخله، فينير كما تنير الشمس على ظلمات الليل، ونلاحظ أننا باستمرار ندور بين قطبي النور والظلام كدوران الدراويش أتباع مولانا.. هناك من جانبٍ آخرِ (غير بعيد عن بلاد فارس) فلسفة مشابهة حول الوصول لمرحلة انفتاح الشاكرا التاجية (والشاكرات نفسها في حركة دوران مستمرة) في الفلسفات الشرقية التأملية (بالهند والصين واليابان)، وهي (الشاكرا العلوية) نفسها العين الثالثة المرسومة بجباه تماثيل آلهة الهندوس، وهي نفسها العين التي تتربع على قمة الهرم الماسوني (يحيط بها النور كالشمس).

العين النورانية، عين العقل التي تنير صاحبها.

والشعار الماسوني هو "نظام عالمي جديد"، نظام النور المختلف عن نظام الظلام، الذي شهده جلال عند ظهور شمس (فهناك اتفاقٌ على أن نظام الرومي انقلب).

بذلك فالمشهد الإسلاميُ فارسيّ هنا برمته لا يختلف عن الأفكار الشرقية المتداخلة والتي تدور حول نفس المفاهيم، من الظلام إلى النور عبر طقوس السمو والتطهر والصوم والصبر والتغلب على الشاكرات "الشهوات" لتحرير الذات أو الروح.

كما أن الأوصاف (في قصتنا) تتطرق لكون لقاء شمس بجلال، كان مثل شمس تنفجر بأنوارها من داخل جلال، لتقلب شخصيته ورؤيته للأمور، ويمكن ترجمتها بالصيغ الشرقية، كانفتاح الشاكرا الأخيرة والوصول لحالة النرفانا، أو استيقاظ العين الثالثة.. حتى أن أفلاطون اعتبر الفلسفة هي طريق الإنسان لبلوغ بحر الجمال (تصور معنوي)، وبحر الجمال عند جلال هو شمس (يستخدم نفس المعنى في غزلياته عن شمس).

***

البحثُ عَنْ شَمس

أنتَ الكُلُّ

أنت من ينطق بالأمر "قل"

إن لم يعرفك الغير

فأنا أعرفك لأنك أنا



حل شمس بقونيا، ودامت صداقته بجلال - كما تشير المعطيات - قرابة العام ونصف، ثم اختفى فجأة، وتَذكُر إحسان الملائكة كيف أن ابن الرومي "سلطان" وصف أن والده انتابته حالة أشبه بالجنونية، وهي مرحلة تفتُّق الأشعار الغزلية، المليئة بالهيام والشوق.

إذا كانت الحالة الجنونية المرتبطة بغيابات شمس، هي الدافع القوي لنثر الأشعار الغزلية العاطفية، ألا يدل ذلك على كون شمس هو بحد ذاته حالة جنونية لدى الرومي؟! حالة باطنية تدفعه لصياغة أجمل التعابير الوجدانية في فن العشق.

والغريب في القصة؛ ليس فقط أن شمس اختفى (اختفاءه الأول) دون أثر ودون أن يراه أحد، أو حتى يقابل أحدًا ينقُل عنه خبرًا، بل أنه بعد غيابٍ دام شهورًا.. بعث برسالة إلى جلال يخبره بأنه في الشام!

حدث أن أرسل الرومي عندها ابنه لجلب جلال (وكان الأجدر أن يقفز من مكانه ويركض باتجاه الشام بحسب حالته النفسية

الموصوفة حول فقدان صديقه).. ماعلينا، المهم أن نَجْل جلال "سلطان" ذهب للشام وأعاد شمس هذه المرة، وحتى يضمن جلال عدم مغادرة شمس، سيقوم بتزويجه من بنت كان يربيها تدعى "كيميا".. كيميا هي الكيمياء بالفارسية، حيث ساعتها كانت الكيمياء علمًا سحريًا خاصًا بتحويل المعادن إلى ذهب، وهي موهبة مرتبطة بالعارفين.

فشمس والذهب وكيميا والتنور، مجرد انعكاسات رمزية لقصة خرافية.

راود الشك شمس في كون كيميا كانت تربطها علاقة حب مع علاء الدين (الابن الثاني لجلال)، فقام بتحذيره من الاقتراب من زوجته، غير أن علاء الدين أهان شمس بكونه مجرد ضيف يعطف عليه والده ولن يمنعه من التجول بحرية في بيتهم، ولو كان هذا حقيقيًا لقامت القيامة، هل سيسكت جلال على ما تعرض له شمس (أرقى كائن في نظره على هذا الكوكب) من إهانة ؟!

وذات يوم، خرجت كيميا في نزهة، وتأخرت.. فما أن عادت حتى قام شمس بخنقها وهو يهددها بعدم القيام بهذا التصرف مرة أخرى!

كيف لسيد الحب وسلطان العاشقين بكل الأزمان، أن يعامل أنثى (بل زوجته وحبيبته) هكذا؟.

ماتت كيميا مصدومة بعد تلك الحادثة.. والراجح أن علاء الدين (ابن الرومي) خطط لعملية اغتيال شمس انتقامًا منه (وهناك تفاسير أخرى عن كون الجميع كانوا يكرهون ويغيرون من شمس لأنه سلب عقل أستاذهم جلال).

الخلاصة من هذه المعطيات الأقرب لأجواء ألف ليلة وليلة، أنه بعد أسبوع من وفاة كيميا، اختفى شمس للأبد (وكانت المدة التي ظل فيها بقونيا بعد عودته من الشام لم تتجاوز نصف عام).

تذهب إحسان الملائكة بعقلانيتها، لسيناريو الاغتيال، حيث شمس وجلال مجتمعان سويًا كعادتهما، فجأة يستدعي شخصٌ ما جلال، يخرج جلال ويعود.. فيجد أن شمس الدين اختفى (وهناك مشهدٌ آخر حيث ينام جلال، وعند الصباح يأتي كالعادة لرؤية شمس فلا يجده هذه المرة).

يعثر الابن سلطان على جثة شمس، فيقوم بدفنها في مكان سري دون إخبار والده! أعتقد أنه حتى لو قاموا بشراء جماعة نينجا من اليابان، لن يقوموا بعملية اغتيال بهذه الدرجة من المهنية والسحرية!

وهناك بالتأكيد نهايات أخرى، مثل صعوده بجسده مثل رابعة العدوية في المخيال الشعبي، أو اختفاؤه بشكل طبيعي كما بالمرة الأولى، دون أن يجده شخصٌ أو يراه أو يسمع عنه، مع العلم أن شهرة جلال ستزداد بسبب تلك الأشعار الفاتنة (ومعها شهرة شمس)، وربما انفلت من قبضة مغتاليه وهرب للهند، وربما انسحر هؤلاء القتلة بشمس فصاروا مُريدين لديه وتبعوه للهند.. تبدو شخصية شمس أنها قابلة لتندمج بأي أحداث خرافية تزيد من دراميانها!

حدثت أمورٌ أخرى بعد اختفاء شمس سنتطرق لها، لكن بعد استحضار الدلائل التي يعتمدها الباحثون في تأكيدهم على واقعية شمس.

تُعيد إحسان الملائكة سرد الدلائل التي وضعها عبد الباقي غول بنارلي ضد المتشككين حول حقيقة شمس:

1 – كتاب المقالات لشمس (كذلك الصحفية لِيلي أنفار تعتبره دليلًا في كتابها "الرومي، دين الحب" مختارات).

2 – قلنسوة شمس الموجودة بمتحف قونيا.

3 – ضريح شمس المُكتَشَف بقونيا.

4 – اختلاف شخصية شمس عن جلال.

بالنسبة لكتاب المقالات لشمس، والظاهر أن اكتشاف وجود هذا الكتاب حدث بأربعينيات القرن الماضي، وتم نشره بالسبعينيات، مثلما تؤكد ليلي أنفار، فما هو هذا الدليل؟ ليس فقط أن التراث العربي مليئ بالكتب المنسوبة لشخصيات لم تكتبها (سواءً كانت شخصيات حقيقة أم خرافية)، يكفي أن نعلم أن فيلسوفًا شهيرًا وهو سورين كيركغارد (عاش بالقرن 19م في الدِنمارك) كتب عدة كتب بأسماء مختلفة، ما يعني أنه سليل تقليد دارج منذ القدم، فيمكن لأي شخص كتابة كتاب ونسبه لشمس.

قلنسوة! لا تعليق.. بالنسبة لضريح شمس بقونيا (ولشمس أضرحة كثيرة) فعبد الباقي غول بنارلي أدلى بدلوه كذلك في مسألة ضريح "يونس آمره" (وكأنه مختصٌ بعلم الأضرحة)، ويونس شاعر متصوف شبيه بجلال الدين الرومي (ظهر بعده) وهو من أهم المعالم الثقافية بتركيا.

قلنسوة وضريح شمس يمكن أن نفهم منهما أنهما اعتزاز قونيا بشخصياتها (ودعمًا للسياحة)، أما برنالي فبحكم ميوله الصوفية، لديه دوافع قوية لتأكيد حقيقة هذه الشخصيات.

وفيما يخص الضريح كدليل فتعالى عندي للمغرب، وسآخذك بجولة حول مئات الأضرحة لأشخاص غير موجودين! فكل قرية كانت تبني ضريحًا لشخص حكيم تتبرك به، وما يعزز ذلك من قيمة المنطقة وأهميتها ويجلب لها الزوار بهداياهم.

اختلاف الشخصيتين بين جلال وشمس، ناقشناه سابقا، فلو كان شمس يختلف بكونه شخصية ثائرة ثقافيا، فجلال لا يقل عنه ثورية في أشعاره، حتى أن أبو الفضل القونياوي كتب كتابًا "أخبار جلال الدين الرومي" اعتبر فيه جلال ملحدًا! ويمكن فهم هذا الأمر بحكم أن التيار السلفي من أشهر أعداء المتصوفة، بهذا يظل اختلاف شمس عن جلال على المستوى النفسي، حيث شمس قاس متوحش، وجلال لطيف ومرهف، وهذه حماقة سبق وتجاوزناها ولن نخوض فيها مرة أخرى.

المشكلة هو أن شمس لم يكن يعرف الكتابة والقراءة!! فهذا المستشرق الإنجليزي رينولد ألين نيكلسون (مترجم أشعار جلال) يقول:

كان شمسٌ إلى حد ما أمّياً، لكنه تميّز بحرارة روحية شديدة، ومصدره الفكرة التي استولت عليه فجعلته يتخيل أنه مبعوث العناية الإلهية.

هل هناك عالم دين في تاريخ الإسلام كان ليضيع وقته في الإنصات لشخصٍ أمّي؟! وهم من كانوا يسافرون ويتنقلون بحثًا عن الأكثر علمًا ومعرفةً منهم.

***

أنا هو

أنتَ الَّذي يَعرِف جَلال الدِّين

يَا وَاحِدًا فِي الكلُ

قُل مَنْ أنَا

قُل أَنَّنِي أنْت



عند اختفاء شمس، تعددت السيناريوهات، بين وضع جلال لجائزة مالية لكل من يجد شمس؛ وبين إرسال ابنه ومريديه للشام للبحث عنه واستعادته كما في المرة السابقة، وبين رحيل جلال بنفسه نحو الشام للبحث عن شمس.

في الشام حدث أمرٌ غريب.. بدأ جلال بتقبُّل غياب شمس، لكن ما يثير الانتباه هو أن جلال بدأ يكشف عن حقيقة شمس من خلال كلامه، حين يقول :

ما دمت أنا هو، فعم أبحث في الشام ؟

حسنه الذي أشبب به

هُوَ هُوَ جمالي أنا

أنا إذن باحثٌ عن ذاتي..

وتشير إحسان الملائكة أن جلال فكّر في الذهاب إلى تبريز (موطن شمس) للبحث عنه، لكنه لم يستطع بحكم النزاعات السياسية القائمة والتي تجعل السفر محفوفًا بالمخاطر، وبالرغم من أن العاشق لا يُوقفه شيئ، سنتجاوز هذه النقطة لنعود مع جلال لقونيا.

عاد جلال لقونيا وشمس يسكنه (في قلبه). وذات يومٍ وهو يتجول في المدينة، وكان قد مضى على اختفاء شمس قُرابَة سنة، وقف بسوق صائغي الذهب، وبدأ بالرقص (بطريقة الدوران المشهورة عند أتباعه) على وقع ضربات مطارق الصائغين، يُمكن فَهم رقصة الدوران (وفتح اليدين وعناق الذات خلالها) كدلالة على البحث بكل اتجاه، فهو من يقول :

في السمعِ والرقصِ ليلَ نهار

كقمر يدور يَطُوف حَولَ الأرض

هذه الحادثة، جذبت أحد الصائغين، وهو صلاح الدين زَركُوب (أي صلاح الدين طارق الذهب).. وطبعا جلال هُوَ من أطلَقَ عليه هذا اللّقب، وأيضا كان هذا الزركوب أُمّيًا لكنّه صوفيّ جَليل! وأيضًا تُغنى به جَلال في أشعاره.

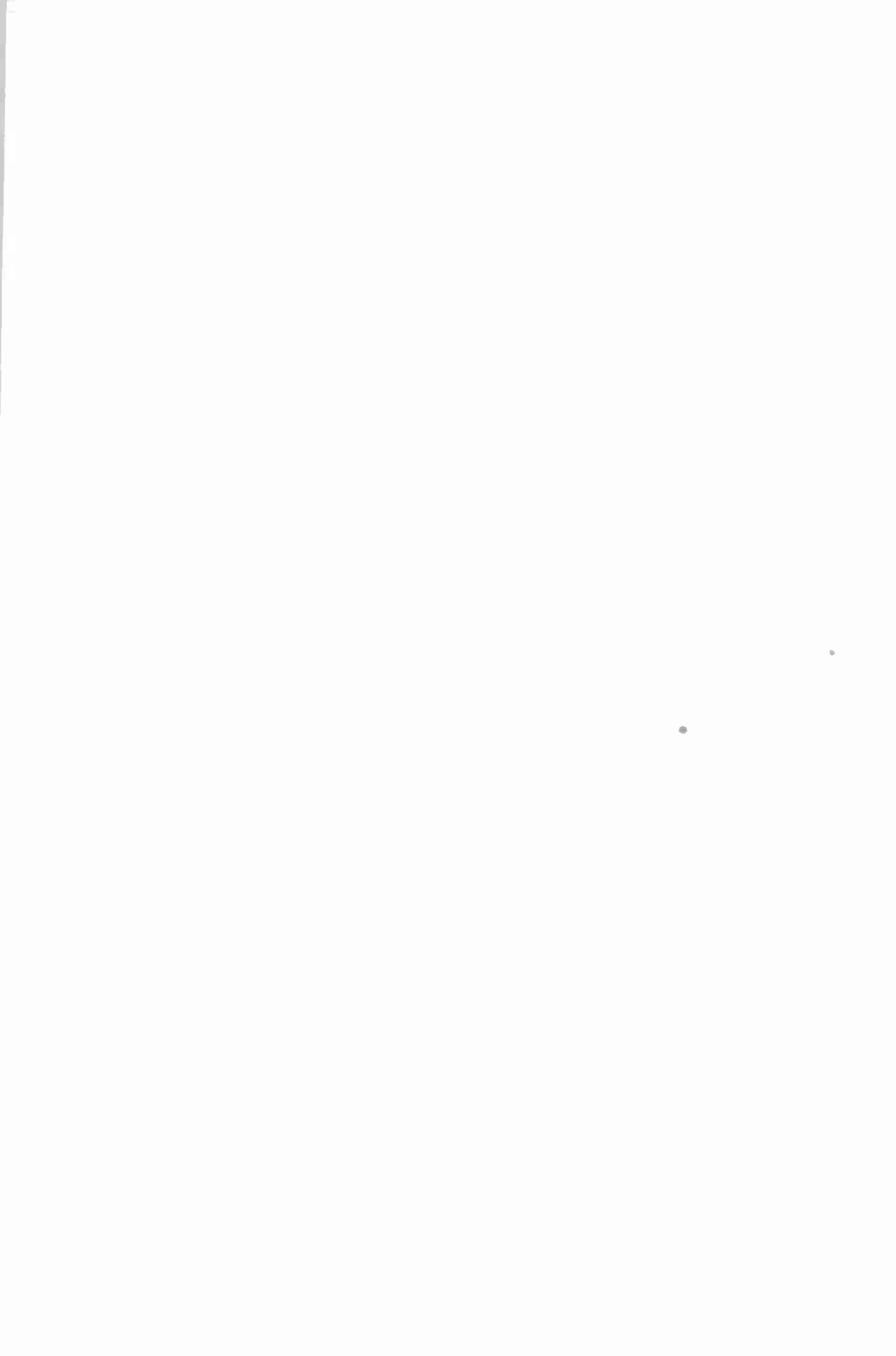
وأيضًا كان لقاءً عجائبيًا، أكثر من لقاء شمس، فصلاح الدين خرجَ مِن دكانه واتجه لعناق جلال الذي رأى فيه شيئًا من شمس، طالما

أن صلاح شيخٌ يكبر جلال، فسارا باتجاه المدرسة، ليصير صلاح تابعًا لجلال.

وطبعا لم تسلم هذه الواقعة من دراما الأفلاكي (مؤلف القصص الشمسية) كون صلاح تخلّى عن دكانه وهو ينادي الناس بأن ذهبه صار لهم (بمعنى اسرقوا قدر ما استطعتم من الذهب) لأنه وجد الذهب الحقيقي، أي جلال الذي يسكنه شمس، الآتي من أرض الذهب، موطن زرادشت، الفتى الذهبي لأديان الشرق، والدارج أن اسم زرادشت يعني "بريق الذهب" أو "الذهب الفاتن"، المهم أنه مرتبط بالذهب وتأثيره.

صلاح صائغ الذهب، ظلّ مع جلال حتى وفاته، ولنعتبر أن صلاح هذا شخص حقيقي قابَلَ وتأثّر بجلال (لذلك لم يختفِ)، غير أن جلال أسقطَ عليه شخصية زرادشت، التي كان يتوهمها في شمس، وقِيلَ أن صلاح خفّفَ عنهُ غياب شمس (هل خفف عنه غياب شمس! أم أن حالة جلال النفسية هي التي خفّت!).

بعد صلاح، سيظهر حسام الدين جبلي، ويبدو أنه شخصٌ ذو نفوذ وثروة، قام بتمويل كل ما يخُص المشروع الصوفي لجلال، ودعم مؤلفات الرومي (تذكر إحسان أنه ظَلّ مرافقًا لجَلال ينسَخ أقواله في الكتب) ليصير جلال أبرز شعراء الشرق، ونجم العاشقين، جذب الآلاف من المتابعين حتى بالفيسبوك وإنستاغرام.



خلاصة

من كل ما مر معنا، يمكن أن نستنتج أن جلال الدين الرومي كان نيتشه عصره، شخصية تلقت تعليمًا جيدًا ونهلت من معارف مختلفة وتشربّت عقائد متنوعة؛ عايَشَت أزمات عاطفية قوية، وإحساسًا شديدًا بالاغتراب؛ فأنتجت أعمالًا مسَّت بروعَتِها النَّاس من مختلف الأطياف والمذاهب والمناطق والأزمان.

لا يُمكِن تأكيد أن جلال عانَى من حالات صَرَع، أو حالة فصام، أو أي حالة عصبية كالتي شهدها سُجَناء أوشفيتز وتزمامارت وجنود الحرب العالمية (حيث يقومون بتخيُّل أشخاص نتيجة الشعور بالوحدة والاغتراب والضغط النفسي)، بالرغم من أنها أمور غير مُستبعَدة.

زيادة على أن الجَو الفكري والعقائد المنتشِرة بزمن جلال، كانت مُساعِدة لتبني حالة نفسية كالّتي عايَنَها عالم الأعصاب الأمريكي (الهندي الأصل) راماشاندران في العديد من الناس وحتى من خلال الأدب التاريخي (التوراتي)، وهي تجارب دينية انفصامية يعايشها أناسٌ

متَشَبِّعون بالمفاهيم الدينية ولها علاقة بتغيُّرات عصبية في الدماغ، منها لقاء شخصيات دينية، زيارة الجحيم والجنة، وحتى الشعور بالنبوة والألوهية، وقد سبَقَ لنيتشه أن أوضَحَ أن كل هذه التشجنات (كما يُطلِق عليها في انتقاده للفكر الديني) لا تأتِي سوى من داخل أصحابها!

من الواضح، أنَّ قصة شَمس جاءت عبر تأويلات الأتباع والمريدين المُعجَبين بهذه الشخصية المذهلة (جلال)، الذي تبنى أجمل الأساليب الشعرية للتعبير عن مكنوناته والعبور بالتجربة الصوفية لأبعد مدى عبر رمزية شمس. والشمس كانت ولا تزال رمزًا من أبلغ الرموز الشعرية، فيكفي ذكر "يا شمس العشية" القصيدة الأندلسية التي كانوا يلقنونها للأطفال في المدارس الابتدائية، ويتغنَّى بها المطربون، ففي شعر وغزَلَيات جلال، يَندمِج شمس بكل الأشياء والأبعاد والأحاسيس، يُصبح تعبيرًا عن الجمال والحب والنشوة وحس الألوهية.

وجلال عكس المجال الإبداعي الذي نشأ فيه واستلهم منه، ففيه نرى البسطامي وابن عربي والحلاج (وما لهم من تأثير بعهده) وانفعالاته تعبيريا شبيهة بابن فارض، معاصره في مصر، فالسماء والخمر والبستان والحديقة والقصر والمعبد والمعازف والجسد؛ كلها نطاقات اعتمدها شعراء بني العباس لوصف التجارب الحسية، والمتصوفة لوصف التجارب الروحانية، عبر أساليب فنية وألاعيب لغوية، تفنن فيها جلال الدين الرومي لكشف أقوى الحالات العشقية.

أما قصته وشمس، فنَلمَس فيها دمجًا لتداخُل عِدَّة جوانب فكرية وعقائدية بعصره وتراث موطنه، فالراجح أن المُأوَلِين المعجبين بمولاهم، ألقوا فيها أبرز الصور المعرفية المنتشرة بعهدهم، ففيها نجد قصة سقراط وأفلاطون (مع بعض التحوير لملاءمتها مع المقاصد الصوفية)، وقد شاهدنا كيف كان والد جلال يكافح ضد المد الفلسفي الذي يروج التأويلات الأفلاطونية في البقاع الإسلامية، نجد كذلك أزمة الحلاج (في شخصية شمس)، الشاعر الذي تم اضطهاده والتخلص منه والقصص التراثية حول لقاء المعلم مع العارف الفارسي (مثل قصة موسى والخوجا خضر)، وليس هناك من باحث يمكنه نفي تلبس التصوف الإسلامي بالأردية العرفانية، من الزرادشتية والبوذية والهرمسية.

بذلك جاءت قصة شمس وشخصيته، بصيغة يسهُل تلقُّفها من جانب المسلمين (والمثاليين كافة)، لأنها تخدم دلالتين مهمتَين على المستوى الثقافي كما على المستوى النفسي (كما خدمت جلال) وهما:

1 - كون شمس، تمثيل لذلك العارف الذي يتمنى الإنسان ملاقاته لتتغير حياته للأفضل.

2 - اختفاء شمس مُرتبط بالانتظار المطلَق، مفهوم مُعتمَد بجل المعتقدات الشرقية، وأبرز صوره المسيح والإمام المهدي (المنتظر).

يقول جلال الدين: أنا في الانتظار منتظرٌ ليلَ نهار.

شمس لم يكن سوى أثر نفسي، تداخل فيه والد جلال، والرغبة الصوفية بلقاء العارف، وأبرز رمز للحكمة في تاريخ الشرق زرادشت..

وحبٌ لا حدود له.

ختام بقصيدة وأغنية

شمس الحق التبريزي

من فَرْطِ ما بكَ من عطفٍ وإحسان

صارَت تبريز خراسان

وليكن ما يكون

***

تعال:

مطلع القصيدة في اللغة الفارسية "خواجه بيا" (سيدي تعال) وسبق وعاينًا تداخُل الخوجا والخواجة في موضوعنا.

سيدي تعال، سيدي تعال

سيدي – مرة أخرى – تعال

لا تنتحل الأعذار، لا تنتحل الأعذار

أيها البدر العيَّار تعال

أبصِر المعشوق المهجُور

أبصر العَالم المليئ بالغواية والشرور

أبصر الظمآن المخمور

أيها الملك الخمار تعال

أنت القدم

أنت اليد

أنت الوجود لكل موجود

أنت البلبل السكران

صوب الرياض تعال

أنت الأذن

أنت العين

أنت صفوة الكل

أنت يوسف المختطَف

فإلى ناصية السوق تعال

يا من على العيون احتجبت

لكل روحٍ وعالمٍ أنت

عُد لنا راقصًا

ودون قلب وعمامة تعال

أنت نور النهار المُبين

أنت الفَرْحُ المحرِّق لِهمّ كل حزين

أنت بدرٌ أضاءَ الليل

يا سحابًا بالسُكر مُحَمَّلًا تعال

يا علمًا لعالم جديد

كل عقل أمامك رهين

مرة لا تأت و مرة أخرى لا تمض

انهض دفعة وتعال..

يا قلبًا مشردًا تعال

يا كبدًا ممزقًا تعال

وإن كان طريق الباب مغلقًا

فعن طريق الجدار تعال

يا نفس نوح تعال

يا هوَس الروح تعال

يا مرهَم المجروح تعال

يا شفاء العليل تعال

يا قمرًا مضيئًا امض

وابحث عن ماءٍ جارٍ في القلب

ابحث عن سعد العشاق

ثم رغم أنف الأغيار تعال

حسبك الآن أيها الناطق الحبيب

فقد أفرط اللسان في الوجيب

قد طال قرعك طبل البيان

فبغير همس ونطق تعال

لنا صاحب

لنا غار

لنا عشق يضرم الكباد بنار

أنت الصاحب

أنت الغار

سيدي فآوني

أنت نوح

أنت الروح

أنت الفاتح والمفتوح

أنت الصدر المشروح

أنت سِرِّي المملوء بالدُّرر

نورٌ أنت

فرح وسرور أنت

إقليم منصور أنت

أنت طائر جبل الطور

بمنقارك انقرني

قُطرٌ أنت

بحرٌ أنت

لطفٌ أنت

قهرٌ أنت

سكّرٌ أنت

سمٌّ أنت

فحسبك لا تؤذِني

فرص الشمس أنت

برج عطارد أنت

واحة الرجاء أنت

فعلى الطريق دُلّني

أنت النهار

أنت الصوم

أنت حاصل التسول

أنت الماء

أنت الإناء

فهذه المرة أروني

أنت الحب

أنت الفخ

أنت الخمر

***

* عن ديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومي، ترجمة محمد السعيد جمال الدين؛ الهيئة العامة المصرية للكتاب. ص84 إلى87.

وما أدراني أنا :

أنت الدن

ناضجٌ أنت

نيئٌ أنت

نيئًا لا تتركني

***

تقول لي لمن أنت ؟

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

لما هذا الجنون؟

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا !

تقول لي بكل هذا الأنين كيف تقوى على عشقي؟

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

أنا في أمواج بحر عشقك تقول لي أين أنت ؟

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

تقول لي لمن أنت؟

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

لما هذا الجنون؟

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

تقول لي ماذا تعمل في القفص إذا أنت طائر في الأعالي ؟

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

وما أدراني أنا!

ملحق

مَنْ هُوَ الخِضْر ؟



هناك ملامح شَبه بين شمس والراجا خضر أو النَّبِي خضر، وكما لاحظنا فقد برز تشابه خصائصهما ببعض التقاطعات خلال صفحات الكتاب، فمن هو هذا الخضر؟

نشرت صحيفة الأهرام نصًّا تحت عُنوان "هل حقًا أن سيدنا الخضر مازال حيًا يُرزق؟" جاء فيه:

"فاجأتني المذيعة العربية في قناة تليفزيونية أوروبية بسؤالٍ عجيب بعد منتصف الليل.. لقد جاءني من يقول أنه رغم مُضِيٍّ نحوَ ستٍّ وثلاثينَ قرنًا من الزمان على حكاية سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليه السلام ، أي ما يُعادل ثلاثة آلاف وستمائة سنة – بحساب المؤرخين – فإنه يتردد الآن أمامي علي شبكات التواصل الاجتماعي أن كتبًا تقول، وعلماءً أجلّاء يقولون أن سيدنا الخضر هذا مازال حيًا يُرزق.. ولم يمُت.. وأن كتابات إسلامية كتبها مؤرخون إسلاميون قالوا ورددوا مثل هذا الكلام.. هل صحيح – دعني أسألك أنت سؤالًا مباشرًا – هل حقًا أن سيدنا الخضر عليه السلام هذا مازال

حيًا حتى الساعة!.. يحمل بُردَة الوعظ والإرشاد مثل تلك التي قدمها لسيدنا موسي عليه السلام في الزمان الغابر وفى صور مختلفة؟

قلت لها: بدايةً لماذا اخترتني أنا بالذات لمثل هذا السؤال اللغز.. وأنا لست فقيهًا ولا عالمًا بأمور الدين مثل علماء المسلمين الكبار أمثال الزهري وابن عباس والبرازي والحسن البصري وعمر مولي عفرة وجعفر الصادق.. ومعهم ابن كثير أيضًا.. وكلنا يعرف من هو ابن كثير في الفقه والتفسير وأمور الدين، لقد ذكر ابن كثير روايات كثيرة عن بقاء الخضر حيًا حتى يومنا هذا، والصحيح - كما قال البخاري في صحيحه - أنه قد مات استنادًا لما قاله المولى عز وجل في مُحكم آياته: "وما جَعلنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبلِكَ الخُلدَ" أمَّا قول بعض الصوفية في أن سيدنا الخضر مازال حيًا يُرزق ولن يموت إلا عندما تقوم الساعة؛ فالأدلة في القرآن تُبطله باعتبار ما قاله الله لنبيه محمد ﷺ: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُم مَّيِّتُوْن".. وأنه لن يبقى على ظهرِ الأرض مِنَ الأحياءِ أحدٌ بعد مائة عام.. فالخضر هنا مات وشبع موتًا.

لكن لنقف قليلًا، مِن أين جاءَت بالأساس فكرة خلود الخضر حتى تغللت بالثقافة الإسلامية، وانتشرت بين عقول الفقهاء وتداولتها كتب التفسير والتأويل حتى الساعة ؟!

ذَكَرَ مارك ميلر أن بعض الدارسين لشخصية الخِضر، يؤَكِدون على أنها أقدم بكثير مما جاء بالإسلام، قد يعود لشخصية

"أوتنابيشتيم" في ملحمة جلجماش، الأسطورة السومرية ببلاد ما بين النهرين، أو الإله الكنعاني كوثر حاسيس، أو حتى ربة المياه الإلهة الزرادشتية "آناهيتا"، ولقد تلبَّسَت شخصية الخضر عدة قديسين، مثل القديس جرجس و إليا النبي.

بحسب الأسطورة؛ الخضر هو الشخص الذي تذوق إكسير الحياة، المشروب الذي يمنح من يتذوقه الشباب والخلود، كان الخضر حكيمًا جوالًا، وصل نبعًا جافًا بالصحراء، فدَفن فيه سمكة مجففة، فتحولت المنطقة لواحة خضراء، شرب الخضر من مائها وغطس فيها، فتحولت عباءته للون الأخضر ومن ذلك جاء لقبه "الخضر"، أدرك أنه وجد منبع الخلود في الشرق.

إن الخضر لدى السوريين سيد المحيط ولا يزال، إنه الشخص القادر على السير فوق الماء، سيد العارفين الذي لا يزال على قيد الحياة في جزيرته بوسط البحر، الطيف الحارس للجوالين والباحثين عن المعرفة، أينما حطَّ؛ تخضرُّ الأرض، الجوال الأسطوري.

والأسطورة لا تموت.

من الذي قال:

مات ذلك الخالد أبدًا؟

من الذي قال:

ماتت شمس الأمل

إنه عدوٌ للشمس

صعد إلى السطح

وأغمض عينيه وقال:

ماتت الشمس

***

حكايات من (المَثْنَوِي)

(ديوان شعر لجلال الدين الرومي)



حكَايةُ الذِّئبِ والأَسدِ والثَّعْلَب

كان أسدٌ وذئبٌ وثعلبٌ قد ذهبوا إلى الجبل من أجل الصيد وطلبًا له.

حتى يتعاونوا معًا على أنواع الصيد، ويتكاتفوا فيما بينهم في شد وثاقه.

ويصيدوا معا في هذه الصحراء الشاسعة صيدًا كثيرًا وسمينًا.

وبالرغم من أن الأسد الهصور كان يشعر منهما بالعار، لكنه أكرمهما بالصحبة.

فإن مثل هذا الملك يشعر بالضيق من الجند، لكن صحبة الجماعة رحمة.

ومثل هذا القمر يشعر بأنواع العار من النجوم، لكنه موجود بين النجوم سخاء منه.

ولقد نزل الأمر بـــ"شاورهم" على الرسول، مع أنه لم يكن هناك رأي ند لرأيه.

وإذا كانت حبات الشعير قد صارت في الميزان قرينة الذهب، فليس ذلك لأنها أصبحت معدنًا كالذهب.

ولقد قرن الروح بالبدن حتى الآن، ولفترة صار الكلب حارسًا على العتبة.

وعندما ذهب هذان إلى الجبل في ركاب الأسد ذي المجد والعظمة.

صادوا ثورًا جبليًا وماعزًا وأرنبًا، وتقدمت بهم الأمور كثيرًا.

وكل من يكون قتاله تحت قيادة الأسد، فإن الشواء لا يقل عنده ليل نهار.

وعندما نقلوا "صيدهم" إلى الغابة قتيلًا وجريحًا جارِّينَ إياه في الدم.

كان الذئب والثعلب يطمعان في أن تتم القسمة بعدل الملوك.

وانعكس طمع كل منهما على الأسد، وعلم الملك أن لهذه الأطماع سندًا.

وكل من يكون أسدًا على الأسرار أميرًا لها، فإنه يعلم كل ما يجري في الضمير.

فحذار، واحفظ يا صاحب القلب المعتاد التفكير، قلبك من التفكير السيء أمامه.

إنه يعلم لكنه يسوق الحمار صامتًا، وإنه ليضحك في وجهك سترًا عليك.

وعندما علم الأسد ما يوسس به صدرهما، لم يفصح عنه، وتغاضى عنه مراعيًا.

لكنه قال لنفسه: فلأُبديَنَّ لكما الجزاء أيها الخسيسَين الشحاذَين.

ألم يكن يكفكما رأيي؟ أو هكذا ظنكما في عطائي؟

ويا من عقولكم ورأيكم "نابعان" من رأيي ومن عطاياي التي يزدان بها العالم.

وأيُ مكرٍ للنقش مع النقاش آخر الأمر، وهو الذي أوحى له بالمكر ولديه خبر به.

أكان لديكما إذن هذا الظن الخسيس بي؟ يا عار الزمن!

وإن لم أقطع رؤوس "الظانين بالله ظن السوء" لكان هذا هو عين الخطأ.

ولأخلص الفلك من عاركم، حتى تظل هذه الحكاية تُروَى في الدنيا.

ومع هذا التفكير كان الأسد يضحك عاليًا، فلا تكن آمنًا من بسمات الأسد..

قال الأسد: أيها الذئب، قسِّم هذا بيننا، وجدد "سيرة" العدل، أيها الذئب العجوز.

وكن نائبًا لي في القسمة، حتى يبدو من أي جوهرٍ أنت.

قال: أيها الملك، الثور الوحشي نصيبك، فهو الأكبر، وأنت كبير وضخم وجلد.

والماعز لي، فهو متوسط في حجمه، ويا أيها الثعلب: خذ الأرنب.. ولا خطأ في هذا.

قال الأسد: أيها الذئب.. كيف تحدثت؟ قل، وعندما أكون أنا موجودًا تقول أنت: نحن وأنت؟

وأيُ كلبٍ يكون الذئب أصلًا حتى يرى نفسه أمام من هو مثلي أسدًا بلا نظير ولا ند؟!

وقال: تقدم أيها الحمار الذي اشترى نفسه.. فتقدم؛ فضربه بمخالبه ومزقه.

وعندما رآه خاوي المخ وبلا تدبير رشيد، عاقبه بسلخ جلده عن رأسه.

وقال: مادامت رؤيتي لم تخَلِّصه من نفسه، فإن مثل هذه الروح ينبغي أن تموت ذليلة..

لقد أطاح ذلك الرفيع الشأن برأس الذئب، حتى لا تبقى هناك رئاستان، ولا يبقى امتيازان.

لقد انطبقَت عليك "فانتقمنا منهم" أيها الذئب العجوز، لأنك لم تكن ميتًا أمام الأمير.

ثم التفت الأسد إلى الثعلب قائلًا: قسم هذا الصيد من أجل الطعام.

فسجد وقال: هذا الثور السمين هو إفطارك أيها الملك المختار.

وذلك الماعز من أجل وسط النهار، ويمكن أن يطبخ عليه "يخني" للملك المظفر.

ثم إن ذلك الأرنب من أجل عشائه، هو تَقَوُّتٌ بالليل من أجل نديِّ اللطف والكرم.

قال: أيها الثعلب، لقد رفعت راية العدل، من أين تعلمت هذه القسمة؟

من أين تعلمت هذا أيها العظيم؟ قال: مما جرى للذئب يا مليك العالم.

قال: ما دمتَ صرتَ رهينًا لعشقنا، فاحمل "الفرائس" الثلاثة وخذها كلها وامض.

أيها الثعلب ما دمتَ قد صرتَ بكُلّيتك لنا، فكيف أوذيك، وقد صرتَ أنت نحن.

فنحن لك، وكل الصيد لك، فضع قدك على الفلك السابع، واصعد.

ما دمتَ قد اعتبرتَ من "مصير" الذئب الدَّنِي، فلست إذن بثعلب، بل أنت أسدي.

فانظروا أيها العظماء.. واعتبروا.

خلاصة الحكاية: الاعتبار من مواقف السابقين.

***

حكاية شجرة الخلود

قال أحد العلماء أثناء قَصِّه لحكاية، أن هناك شجرة في الهند..

كل من أكل من ثمارها، لا يشيخ، ولا يموت أبدًا.

وسمع أحد الملوك عن هذا الأمر، ومن إخلاصه، صار عاشقًا للشجرة وثمارها.

فأنفذ رسولًا عالمًا من ديوان الأدب، إلى الهند من أجل الطلب.

ولسنواتٍ ظلّ ذلك الرسول من قبله، يطوف أنحاء الهند باحثًا متفحصًا.

أخذ يطوف من أجل مطلبه، مدينة بعد مدينة، ولم تبقَ جزيرة ولا جبل ولا صحراء.

وكل من قام بسؤاله، سخر منه قائلًا: من الذي يبحث عن هذا إلا مجنون مُقيد بالأغلال؟

وكثيرٌ من الناس صفعوه ساخرين منه، وكثيرون قالوا له: يا صاحب الفلاح..

بحثٌ أريب.. صافي الصدر، كيف يكون بلا جدوى؟ وكيف يكون جزافًا؟

وهذا التوقير والاحترام صفعٌ من قَبيل آخر، وهو أقسى من الصفع الصريح.

كانوا يمدحونه قائلين: أيها العظيم، في إقليم كذا،وهو إقليم شاسع مترامي الأطراف.

وفي غابة كذا، شجرة خضراء عالية جدًا ووارفة، وكل غصن فيها ضخم.

وأخذ قاصد الملك الذي جد في البحث، يسمع من كل شخص خبرًا ما.

ولقد ساح لسنوات طويلة في ذلك المكان، وكان الملك يُرسل إليه الأموال.

وعندما تَجشّم كثيرًا من التعب في تلك الغربة، عجز في آخر الأمر عن الطلب.

فلم يبدُ أي أثر لمقصوده، ولم يجد من ذلك الغرض غير الخبر.

وتقطعت خيوط أمله، فإنه في النهاية لم يجد ما يبحث عنه.

فعزم على العودة إلى الملك، وهو يذرف الدمع ويطلق الآهات..

كان هناك شيخ عالم قطب كريم، في ذلك المنزل الذي يئس فيه النديم.

قال : فلأمضِ إليه أنا اليائس، ومن عتبته أبدأ الطريق.

حتى يكون دعاؤه رفيق طريقي، مادمت قد يئست من مطلوبي.

وذهب إلى الشيخ بعين غارقة في الدمع، وهو يذرف الدمع، كما يذرفه السحاب.

وقال: أيها الشيخ، هذا هو أوان الرقة والرحمة، إنني قانط، وهذه ساعة اللطف.

قال له: قصَّ عليَّ، ممَّ قنوطك؟ وما هو مطلوبك؟ وإلى أي شيء تتجه؟

قال: لقد اختارني الملك، من أجل البحث عن غصن شجرة.

وقال: إن هناك شجرة نادرة في الأنحاء، وثمارها هي أساس ماء الحياة.

وبحثتُ لسنوات، ولم أجد علامة واحدة عنها، إلا سخرية هولاء الخالِيْنَ من الهم.

فضحك الشيخ وقال: أيها الساذج، هذه هي شجرة العلم، الموجود عند العليم.

هي عالية جدًا، ضخمة جدًا، مبسوطة جدًا، هي ماء الحياة من البحر المحيط.

ولقد مضيت صوب الصورة أيها المغفل، ذلك أنك بلا ثمر أو نصيب من غصن المعنى.

حينًا سموها شجرة، وحينًا شمسًا، حينًا سموها بحرًا، وحينًا سحابًا.

إنها واحدة، نجمت عنها مئات الآلاف من الآثار، وأقل آثارها العمر الباقي.

وإنها وإن كانت واحدة، فلها من الآثار ألف، وجاز لأن يكون لهذه الواحدة أسماءٌ لا حصر لها.

فذلك الشخص الواحد يكون لك أبًا، لكنه للآخر يكون ابنًا.

وبالنسبة لشخصٍ ثالث يكون قهرًا وعدوًا، وفي حق رابع يكون محسنًا ولطيفًا.

له مئات الآلاف من الأسماء وهو إنسانٌ واحد، وكل من يصفه بصفة، يتجاهل الصفات الأخرى.

وكل من يبحث عن الاسم وإن كان صاحب ثقة، يكون منك يائسًا، وفي تفرقة.

فما عكوفك على هذا الاسم للشجرة؟ حتى تظل محرومًا سيئ الحظ.

ودعك من الاسم، وانظر إلى الصفات، حتى تبدي لك الصفات الطريق إلى الذات.

ولقد وقع الاختلاف بين الخلق من "العكوف" على الاسم، وعندما اتجهوا إلى المعنى حل الصفاء.

***

حكاية وكيل صَدر جهَان

في بُخارَى.. اتُّهِم عبدٌ لصدر جهان، فاختفى بعيدًا عن أنظار "صدره" هذا.

وشاح شريدًا طيلة عشرة سنوات، حينًا في خراسان وحينًا في قوهستان وحينًا في رشت.

وبعد هذه السنوات العشر صار ممهودًا من الاشتياق ومن مكابدة أيام الفراق.

فقال: لم يتبقى لي طاقة على البعد، وكيف يستطيع الصبر أن يطفئ "لواعج" الاستئصال.

عزم الوكيل على الرجوع إلى بُخارَى بلا مبالاة من شدة عشقه.

لقد نفذ صبره إلى مالا نهاية، فهو في تنور مضطرم النيران، وهو يقول لنفسه: امض نحو صدر جهان ولُذ به.

كانت بخارَى هذه منبعًا للعلم، ومن ثمَّ فكل من كان عارفًا كان منسوبًا إلى بخارَى.

إن فرقة صدر جهان كانت قد مزَّقت كيانه إربًا.

فقال: لَأمضنَّ وأمضينَّ إلى هناك، فإن من قبيل الكفر أن أميل إلى مكان آخر.

لأمضين إلى ذلك المكان ولأسقط أمامه، أمام ذلك الصدر خير الفكر.

وسوف أقول له: لقد ألقيت بروحي أمامك، فأحيها أو فاذبحني ذبح الشاة.

إني القتيل والميت أمامك أيها القمر، أفضل من ملك الأحياء في مكان آخر.

إن الحُرقة تشويني شيًّا لحظة بعد لحظة، إنني ماضٍ إلى هناك وليكن ما يكون.

وبالرغم من أنه يجعل القلب كحجر الصوَّان، فإن روحي ذاهبة إلى بخارَى.

إنها مسكن الحبيب ومدينة قلبي، وهكذا يكون حب الوطن بالنسبة للعاشق.

قال معشوق لعاشق: أيها الفتى، إنك قد رأيت كثيرًا من المدن.

فأيهما أجمل؟ قال: تلك المدينة التي يكون فيها الحبيب.

وحيثما كان هناك موضع مليكنا، هو خلاء.. وإن كان سمُّ خِياط.

وحيثما يكون يوسف كالقمر، فهو جنة ولو كان قعر جُب.

قال له ناصح: أيها الغافل، فكر في العاقبة إن كنت ذا فضل.

وانظر إلى ما وراءك وما أمامك بعقل، ولا تحرق نفسك كالفراشة.

وعندما تمضي إلى بخارَى فأنت مجنون، خليق بك القيد وجدير بك السجن.

إنه يمضغ الحديد غضبًا عليك، ويبحث عنك ويطلبك بحثًا لا حدَّ له.

إنه يشحذ من أجلك سكينه، كأنه كلب في قحط، وأنت بالنسبة له جِوالٌ من الدقيق.

فما دمت نجوت وأعطاك الله طريقًا، فكيف تمضي إلى السجن وماذا جرى لك؟

ولو أن خلفك عشرة أنواع من العسس، للَزِمك عقلٌ حتى تختفي عن أنظارهم.

وما دام أحد قط لم يوكل "بمطاردتك"، فمن أي شيءٍ سد عليك الطريق من قدام ووراء؟

لقد كان العشق الخفي قد أسره، ولم يكن ذلك النذير يرى ذلك الموكل.

رد العاشق على الناصح العاذل بلا مبالاة من العشق.

قال: أيها الناصح، أصبت، كفاك كفاك، وقلّل من نصحك فإن القيد شديد الإحكام.

لقد صار القيد عليَّ أكثر قوة من نصحك، ذلك أن عالمك لم يعرف العشق.

وفي تلك الناحية التي زاد فيها العشق الألم، لم يدرس الشافعي وأبو حنيفة.

لا تُخوِّفني بالقتل فإنني شديد العطش إلى دمي.

وللعشاق في كل لحظة موت، وموت العشاق في حد ذاته ليس من نوعٍ واحد.

وبالرغم من أن هذا العاشق يمضي إلى بخارَى، فإنه يمضي لا إلى درس ولا إلى أستاذ.

لقد صار حسن الحبيب هو المدرس للعشاق، ودفترهم ودرسهم وواجبهم المدرسي هو وجهه.

اتجه ذلك العاشق الباكي بدموع من دم، خافق الفؤاد نحو بخارى جادًّا مسرعًا.

كانت رمال نهر جيحون بالنسبة له كالحرير، وماء نهر جيحون أمامه كالنبع.

وكانت تلك الصحراء بالنسبة له كالروضة، وكان يتعثر بشرًا وسعادة كقاطف الورود.

يا بخارى لقد كنتِ تزيدين في العقل، لكنك اختطفتِ مني العقل والدين.

وعندما أبصر سواد بخارى، ظهر بعض البياض في سواد الغم.

فسقط مغشيًا عليه ممددًا، وطار عقله نحو بستان السرِّ.

وأخذوا يرشون على وجهه ورأسه ماء الورد، وكانوا غافلين عن ماء ورد عشقه.

لقد دخل بخارَى سعيدًا، عند معشوقه ودار الأمان.

مثل ذلك الثمل الذي يطير فوق الأثير، يحتضنه القمر ويقول له: عانقني.

وكل من رآه في بخارى قال له: انهض قبل أن يكتشف أمرك، لا تمكث، اهرب.

فإن ذلك الأمير يبحث عنك غاضبًا، حتى ينتقم منك انتقامًا جديرًا بانتظاره إياك عشر سنوات.

بالله، بالله عليك لا تسع في دمك، قلل الاعتماد على مواجيدك وتعاويذك.

لقد كنت رئيس شرطة صدر جهان وعظيمًا، كنت موضع ثقته ومخططًا له، وأستاذًا.

ولقد غدرت وهربت من الجزاء، ونجوت فلماذا علقت ثانية؟!!

لقد هربت من البلاد بمئة حيلة، فهل جاء بك البلَه إلى هنا أم الأجل؟

قال: إنني مستسقٍ يجذبني الماء، مع علمي بأن الماء يقتلني.

ولا يوجد مُصابٌ بالاستسقاء يهرب من الماء، ولو قتله مائة مرة وأفناه.

فإن تورّمَت مني اليد والبطن، فإن عشق الماء لن يقل عندي.

وأقول عندما أسأل عما أحس به في داخلي، ليت نهرًا يجري في باطني.

وكالكرة ساجدًا على وجهه وعلى رأسه، مشي صوب ذلك الصدر بعين دامعة.

والخَلقُ جميعًا منتظرون كأن على رؤوسِهِمُ الطير، يتساءلون، هل سيشنقه أو يصلبه؟

لقد ألقى ذلك البخارِيُ بنفسه على الشمع أيضا، كان ذلك الكبد قد هان عليه من العشق.

لقد تصاعدت آهاته الحرى نحو الفلك، فتحركت الرحمة في قلب صدر جهان.

وحدث نفسه في الفجر مناجيًا: يا أحد، كيف حال شريدنا ذاك؟

لقد أذنب، وعلمنا ذلك عنه، لكنه لم يكن يعلم رحمتنا جيدًا

إن خاطر المجرم يكون في خوف وهم، لكن كثيرًا من الآمال تكون في خوفه هذا

إنني أُخيف الوقح المِهذار، لكن أي تخويف مني لذلك الذي يخاف في الأصل؟

والنار خليقة بالقدر البارد، لا بذلك القدر الذي يطفوَ حتى حافته من الغليان.

إنني أرقع، أضع كل رقعة في موضعها، وأعطي كل امرئٍ ما يصلح من شراب.

وسر المرء كجذر الشجرة، تنمو أوراقها من الخشب اليابس.

ولقد نمت الأوراق بما يليق بهذه الجذور، وهذا الأمر سواء في الشجر أو في النفوس أو في النهي.

وعلى الفلك أوراق من شجر "الوفاء"، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وعندما نبتت أوراق من العشق فوق السماء، كيف لا تنمو إذن في قلب صَدرِ جهان؟

وأخذ العفو عن الذنب يتمَوّج في قلبه، ذلك أن هناك كُوّة من القلب إلى القلب.

من القلب إلى القلب كوة على وجه اليقين، ليست منفصلة أو بعيدة مثلما يكون الجسدان.

وقاعدتا مصباحين لا تلتقيان، لكن نورهما يمتزج في مجاله.

ولا يوجد عاشق قط يكون باحثًا عن الوصل، ولا يكون معشوقه باحثًا عنه.

فها هو ذا العاشق "البخاري" يصل، وقد شدّ العشق وثاقه بحبل من مسد.

وعندما أبصر وجه صدر جهان، كأنما طار من جسده طائر الروح.

انهدّ جسده وسقط كأنه الخشب اليابس، وسرت فيه البرودة من مفرق الرأس إلى أخمص القدم.

ومهما أحرقوا من بخورٍ أو رشُّوا على وجهه ماء ورد، لم يتحرك ولم ينبس ببنت شفة.

وعندما رأى الملك وجهه الشبيه بالزعفران، ترجّل عن مطيته ومشَى صوبه.

وقال: إن العاشق يبحث عن المعشوق بقلق وجد، وعندما وجد المعشوق ذهب ذلك العاشق.

إنك عاشق للحق، وعندما يتجلى الحق فإنه لا يُبقِي منك شعرة واحدة.

إن مائة مثلك فانون أمام تلك النظرة، إنك عاشق لنفي ذاتك أيها السيد.

أخذ صدر جيهان يعيده إلى وعيه رويدًا دويدًا، صدر "بحلو" بيانه..

وهمس الملك في أذنه: أيها الشحَّاذ، لقد جئت بالذهب نثارًا لك فافتح حجرك.

يا من رأيت فراقي الحلو والمر، عد إلى وعيك من إغمائك.. عد.

فقفز واهتز ودار دورتين بفرح شديد، ثم انكبَّ على وجهه ساجدًا.

قال : يا عنقاء الحق، يا مطافًا للروح، الشكر لله أنك عدت من جبل قاف.

إنني حائر بين الحديث والبكاء، أبكي أم أتحدث، "رباه" ماذا أفعل؟

فإن تحدثت فاتني البكاء، وإن بكيتُ فكيف أفصح عن الشكر والثناء؟

***

حكاية الدَّروِيش والحَطَّاب

قال أحد الدراويش في سمره، لقد رأيت المنسوبين إلى الخضر عليه السلام في الحلم.

فقلت لهم: من أين أطلب رزقًا حلالًا، خاليًا من وبال الكدح؟

فقادوني إلى الجبل، وكانت الثمار تتساقط من الغابة في ذلك المكان.

وقالوا إن الله تعالى أقسم أن تكون هذه الفاكهة حلوة في فمك بهمتنا ودعائنا.

هيا.. كل.. أكلًا طاهرًا حلالًا بلا حساب وبلا تعب وبلا سعيٍ هنا وهناك.

ومن ذلك الرزق انبعث في نوع من النطق بحيث كانت لذة أقوالي تخطف القلوب.

قلت: هذه فتنة يا رب العالمين.. هبني عطاءً خفيًا عن كل الخلق.

فذهب هذا النطق عني، وصرت سعيدًا، وأخذت اتشقق حلاوة كأنني الرمان.

وقلت: لو لم يكن هناك شيئ في الجنة إلا هذا السرور الذي أحس في جبلتي.

فإنني لن أتمنى نعمة أخرى، ولن أنشغل عنها بالحور أو بقصب السكر.

وكانت قد بقيت معي حبة وحبتان (من الذهب)، انطوت عليهما بطانة جبتي من أيام الكسب.

وكان هناك فقير يحمل الحطب، قد وصل من الغابة متعبًا مهدودًا.

فقلت في نفسي: أنني فارغٌ من أمر الرزق، ومن الآن فصاعدًا ليس عندي هم الرزق.

إن الفاكهة الممجوجة قد صارت حُلوة بالنسبة لي، وحصل جسدي على رزقٍ خاص به.

وما دمت قد أصبحت فارغًا من أمر الخلق، فلأعطه هذه الحبات "من الذهب".

لأعطِ هذا الذّهب لذلك الذي يعاني التكليف، حتى يفرغ من أمر الرزق يومين أو ثلاثة.

لكنه كان يعلم حتى ما في ضميري، وذلك أن نوره كان من شمعه عز وعلا.

كان سر كل فكر موجودًا عنده، كأنه مصباح داخل زجاجة.

لم يكن الضمير يخفى عليه قط، كان أميرًا على مضامين القلوب.

ومن ثم أخذ يهمس لنفسه جوابًا على نيتي ذلك الرجل العجيب.

قائلًا: أمثل هذا التفكير من أجل الملوك؟ "كيفَ تلقى الرزق إن لم يرزقوك" ؟

لم أكن أفهم كلامه جيدًا، لكن عتابه كان يدق على قلبي شديدًا وعنيفًا.

واتجه إليّ بهيبة كهيبة الأسد، وقد حطّ حمل الحطب عن كاهله.

إن شعاع الحالة التي انتابته عندما وضع الحطب، جعل الرعدة تصيب كل عضو في.

وقال:يارب،إن كان لك خواصّ دَعوتهم مباركة وخطاهم مباركة.

فإني ألتمس من لطفك أن يكون مشتغلًا بكيمياء (التبديل)، وتتبدل حزمة الحطب هذه إلى ذهب في التو واللحظة.

فرأيت أن حطبه قد تبدل إلى ذهب على الفور.. أخذ يلمع لمعانًا شديدًا على الأرض كأنه النار.

ففقدت الوعي برهة من الزمن، وعندما عدتُّ إلى وعيي أصابني الوَلَه.

ثم قال: يا إلهي، إذا كان هؤلاء الكبار غيورين جدًا زاهدين في الشهرة.

فاجعل هذه ثانية حزمة من حطب على الفور وعلى نفس الحال كانت عليها.

فصار ذلك الذهب حطبًا في التو واللحظة، وحار في عمله هذا العقل والنظر.

ثم حمل حطبه ومضَى نحو المدينة متقدمًا إيايَ مسرعًا جلدًا.

فأردتُّ أن أسير خلف هذا السلطان، أسأله عما لدي من مشكلات وأسمع منه.

لكن الهيبة التي كانت عليه قيدتني، فليس هناك طريق للعوام إلى الخواص.

وإذا أصبح هناك طريقٌ لأحد، فقل له ضحِّ بروحك، فهذا يكون من رحمتهم وجذبهم.

ثم اغتنم إذن هذا التوفيق، عندما تجد صحبة صديق.

ليس مثل ذلك الأبله الذي يجد القرب من الملك سهلًا يسيرًا فيسقط في تلك اللحظة خارج الطريق.

وعندما يعطونه من الأضحية نصيبًا أكبر، يقول: لعل هذه فخذ بقرة.

ليست هذه فخذ بقرة أيها المفتري، إنما تبدو لك فخذ بقرة من حُمَاريتك.

إن هذا بَذْل الملوك دون مقابل، هو عطاء محض من الرحمة.

أهجر الملك مثل أدهم سريعًا حتى تجد مثله ملك الخلود.

***

حكاية وَشم القَزوِيني

كان أهل قزوين قد تعوّدوا أن ينقشوا بطريق الوشم صورًا لبعض الحيوانات على أجسامهم، وفي أحد الأيام توجَّه قزويني إلى حجَّام لينقش له صورة الأسد على جسمه لكي يتخذ من تلك الصورة عنوانًا لشجاعته وجرأته التي يتظاهر بها أمام الناس.

وسأل الحجَّام أيَّ مناظر الأسد تريد أن أنقشه؟

قال: أريد صورةَ أسدٍ غضوب باديَ الأنياب، علمًا أن برج الأسد هو طالعي الذي وُلِدتُ فيه.

قال الحجّام: وأين تريد أن يكون موضع الصورة من جسمك؟

قال : اجعل النقش في ساعدي الأيمن ليظهر أمام الجميع، فأخذ الحجام إبرة الوشم وبدأ يرسم الصورة المطلوبة، فأحسّ القزويني ألمًا موجعًا من وخز الإبرة وصاح في وجه الحجّام قائلًا: أيَّ صورة ترسم الآن؟

قال : أنقش صورة الأسد كما طلبت.

فسأل القزويني: ما الذي بدأت ترسمه من أعضاء جسم الأسد؟

قال له: إني بدأتُ بذيله.

القزويني: اترك يا عزيزي ذيل الأسد، وابدأ بغيره من أعضاء جسمه، لأن ذيله قد أجهدني، ولا ضير على الأسد أن يكون بغير ذيل.

وأخذ الحجّام يصوِّر عضوًا آخر غير الذيل، فصرخ القزويني متألمًا، وقال: ما الذي تنقشه الآن من أعضاء الأسد اللّعين؟

قال : إني أصوِّر أذنيه.

قال القزويني: إني أريد أسدًا بلا أذنين، فإن ذلك لا يعيبه، ومضى الحجَّام للمرة الثالثة يواصل الوشم، فتململ القزويني، وقال: ما هذا الذي ترسمه أيّها الحجّام؟

قال : أرسمُ بطن الأسد.

القزويني – وهو يتلوَّى جزعاً: إن أسدي هذا ليس في حاجة إلى بطن، وليست به ضرورة إلى الطعام.

وحين طالت بهذا الحجَّام حيرته من هذا القزويني المصارع، رمى يإبرة الوشم على الأرض، وقال غاضبًا للقزويني:أيها الشيء العجيب!

لا أعلم أن الله تعالى خلق أسدًا بغير ذيل وبغير رأس، وبغير بطن، ولم يشاهد أحدٌ مثل هذا الأسد، لا في الحقيقة ولا في الرسوم، وما دمتَ لا تحتمل وخز الإبرة فكيف تدَّعي شجاعة الأسود؟

إن الطاعات تحتاج إلى رياضة النفس على احتمال المكاره والمشاق، وقد حُفَّت الجنة بالمكاره، كما حُفَّت النار بالشهوات.

***

قِصَّةُ الأسَدِ والوحُوشِ والأرنَب

هذه القصة من قصص كليلة ودمنة، وهي كما جاءت في هذا الكتاب:

زعموا أن أسدًا كان في أرضٍ مخصَّبة كثيرة الوحوش والماء والمرعَى، وكان لا ينفعهُنَّ ما هُنَّ فيه من خوفِهن من الأسد، فائتمَرْن فيما بينهن وأتينه فقُلن له: إنك لا تصيب منا الدابة إلا بعد تعب ونصب، وقد اجتمعنا على أمر لنا ولك فيه راحة إن أنت أمَّنتَنا ولم تُخِفنا.

فقال: أنا فاعل.. فُقلن: نرسل إليك لغدائك كل يوم دابَّة منَّا.

فرضي بذلك وصالحهن عليه، ووفى لهنَّ بما أعطاهن من نفسه، ووفين له به.

ثم إن أرنبًا أصابتها القُرعَة، فقالت لهن: أيُّ شيءٍ يضركن إن أنتن رفقتُن بي فيما لا يضركن، وأُريحُكن من الأسد؟ فقلن لها: وما ذلك؟

قالت: تأمُرن من يذهب معي ألا يتبعني لعلي أبطئ على الأسد حتى يتأخر غداؤه فيغضب لذلك، ففعلن بها ما ذكرته.

وانطلقت.. حتى جاءت الساعة التي يحين فيها وقت غذائه، فجاع الأسد وغضب، وقام من مربَضه يمشي وينظر، فلما رآها قال: من أين جئت، وأين الوحوش؟ فقالت: من عندهن جئت وهن قريب، وقد بعثن معي بأرنب، فلما كنت قريبًا منك، عرض لي أسد فانتزعها مني، فقلت: إنها طعام الملك فلا تغضبنّه، فشتمك، وقال: أنا أحق بهذه الأرض وما فيها منه. فأتيتك لأخبرك.، فقال: انطلقي معي فأرينيه. فانطلقت به إلى جُبٍّ صافي الماء، فقالت: هذا مكانه، وهو فيه وأنا أفرق منه، فاحملني في صدرك. فحملها في صدره، ونظر في الجب فإذا هو بظلِّها وظلِّه، فوضع الأرنب من صدره، ووثب لقتال الأسد في الجب.. فغرق.

وانفلتت منه الأرنب ورجعت إلى سائر الوحوش فأعلمتهن بخبره.

هذه هي القصة، ولكن (المَثنَوِي) أخذها فتصرَّفَ فيها، وتوسل بها إلى الإبانة عن آرائه كدأبه في كثير من القصص، يجعلها وسيلة إلى الإبانة عن مذهبه، ويستطرِد، ويُغفل القصة حتى تضيع في الاستطراد، ثم يعود إليها.

إقرأ في كليلة هذه القصة، واطلب لك منها حصة:

طائفةٌ من الصيد في وادٍ ذي رَوَاء، كانت من الأُسدِ في عَناء

كم بَغتها ففتِك فيها، ونغَّصَ عليها مراعي واديها.

فاحتالت واقترحت عليه؛ أن تكفيه بوظيفة تُرسل إليه.

على ألا يصطاد غير الوظيفة ولا يطغى، حتى لا يُمِرَّ عليها هذا المرعى.

الأسد: نعم إن رأيتُ الوفاءَ لا المكر، فكم رأيتُ المكر من زيدٍ وبكر

أنا وقِيذ الفعل والقول من الإنسان، ولَديغ العقرب والثعبان

وإنسان نفسي في ضميري كامن، شرًّا من الناس مكرًا وضغائن.

سمعت أذني: "لا يلدغ المؤمن "..فآثرت بالقلب والروح قول المؤتَمَن.

الصيد: أيها الحكيم ذا البصر (الحذر ليس يُغني من قَدر)

كم في الحذر من قلق وضَير، فعليك بالتوكل فهو خير

أيها القويُ الحديد لا تغالِب القضاء، فيناصبك القضاء العداء..

يتابع (المثنوي) القصة حتى عودة الأرنب إلى الوحوش مع التشديد على العِبَر الدينية من مغزى القصة:

لّما فرِحت الأرنبُ بالنجاة؛ جرت تّلقاء الصيد في الفَلاة.

رأت الأسد في الجب هوى، فعَدَت راقصة حتى المرعى.

صفقت بيديها حين أفلتت من الفناء، ناضرة راقصة كالورق والأغصان في الهواء.

خلُصت من حبس الطِّينِ الأوراقُ والأغصان، فرفعت رأسها فهي والريح سيَان.

لّما شق الورق الأغصان وانتشر، وسارع إلى ذُرى الشجر..

واجتمعت الوحوش كلها في زحام، في سرور وضحك وطرب وهيام.

تحلقن حولها وهي بينهن كالشمع، وسجدن وقلن لها أرعي السمع

الوحوش: أجِنّيَّةٌ أنت أم ملك سماوي؟ بل أنت عزرائيل كل أسد قوي

أرواحنا فداؤك ما حييت، حُزتِ السبق، سَلِمتِ وحُيِّيتِ.

أجرى الحق هذا الماء في نَهرك.. مرحى لعضدك! مرحى ليدك.

أبيني أبيني كيف مكرت به! هذا الجبَّار كيف بمكرك صرعته!

أبيني ففي القصة دواء الجراح، أبيني إنها بَلسم الأرواح.

الأرنب: إنه تأييد الله أيها الكبراء، وإلا فما أرنب على الغبراء؟

وهَبَني القوة وأنار قلبي، وأمدَّ نور القلب رجلي ويدي.

من عند الحق يأتي التفضيل، ثم من عند الحق يكون التبديل.

ويداول الحق هذا التأييد، بين أهل الرجاء والبصر السديد.*

---

* ترجمة : عبد الوهاب عزام؛ فصول من المثنوي. مؤسسة هنداوي.

حكاية الببغاء والتاجر

كان هناك أحد البقالين، وكان لديه ببغاء جميلًا حسن الصوت أخضر اللون، فصيحًا.

كان مقيمًا في الحانوت حارسًا له، وكان يفاكه كل التجار.

وكان عند مخاطبته البشر ناطقًا، كما كان في تغريد الببغاوات حاذقًا.

وفي أحد الأيام حينما كان البقال ذاهبًا إلي بيته، صادف أن كانت قطة في الدكان تطارد فأرًا.

فارتعب الببغاء من هذا المنظر وخاف وطار مضطّربًا يمينًا وشمالًا علي أمل تخليص نفسه من مخالب القطة.

فارتطمت أجنحته بزجاجات مليئة بزيت اللوز فسقطت وتكسّرت وسال الزيت على الأرض.

فقفز وهرب من صدر الحانوت يبحث عن ملجأ ما، فصبَّ زجاجات ماء الورد.

وأتى سيده من الدار إلى الحانوت، وعندما شاهد الموقف عن كثب، رأى الحانوت مليئًا بالزيت والقماش بماء الورد.

امتلأ غيظًا فأمسك الببغاء وضربه بالعصا على رأسه ضربًا مبرحًا حتى سقط ريش رأسه وأصبح أصلعًا، فسكت الببغاء منذ تلك اللحظة ولم يتفوه بعدها بكلمة أبدًا.

أخذ البقّال يقتلع لحيته ويقول: واأسفاه، إن شمس نعمتي قد غطاها السحاب..

ليت يدي قد قطعت حين ضربت حلو اللسان هذا على رأسه.

وأحاط به الهمُّ والحزن طوال الوقت، وكثيرًا ما سعى البقال إلى تسليته وتطييب خاطره على أمل حمله على الكلام.

ليجلب بالنتيجة أنظار الناس إلى الدكان بكلامه الساحر كالسابق، إلا أن الببغاء لم يحرك ساكنًا وبقي صامتًا.

أخذ يقدم الصدقات لكل الدراويش، حتى يدعوا لطائره بأن يعود إلى النطق.

احتار البقال كثيرًا واغتمَّ، بل إنه تصدق لوجه الله تعالى على أمل أن يتكلم الببغاء.

ودعا الله تعالى أن يعينه على ذلك، لكن هيهات فقد ذهبت جميع مساعيه أدراج الرياح.

وكان يُبدي لذلك الطائر كل ما يخفيه من "عجيب وغريب" علّه يبدأ في النطق.

كان يتحدث لحظة بعد أخرى حديثًا من كل باب، ربما يبدأ الببغاء في الكلام.

وتوالت الأيام وجو الدكان يسوده الهم والحزن، إلى أن مر من هناك في أحد الأيام درويش "قلندري أو بكتاشي" عاري الرأس، برأس حليقة كظهر الإناء أو الطست.

وما أن وقع نظر الببغاء علي رأس ذلك الرجل الأصلع حتى فتح منقاره وصاح فجأة قائلًا: أيها الأصلع، هل سكبت أنت أيضا الزيت فضربك سيدك وأصبحت أصلعًا؟

ومن قياسه ضحك الخلق ، فقد ظن الدرويش مثله! "فغرق الناس في الضحك من قياسه هذا".

فلا تقس أمور الأطهار على أمورك، وإن تشابهتا في الكتابة كلمة "شير" فإنها بمعنى أسد وبمعنى لبن.

ولهذا السبب ضل كل الخلق، وقليل من صار واعيًا، وهم أبدال الحق.

فظنوا أنهم يستوون مع الأنبياء، وظنوا الأولياء من أمثالهم.

وقالوا: في النهاية هم بشر ونحن بشر، ونحن وهُم في أسرِ النوم والطعام .

ولو يعرفوا لما فيهم من عمى، أن هناك فرقًا بينهم لا حد له.

فهناك نوعان من النحل يمتصّان الرحيق من موضع واحد، لكن أحدهما يعطي الوخز والآخر العسل.

وهناك نوعان من البوص يسقيان من ماء واحد، لكن أحديهما خال، والآخر مليئ بالسكر .

***

حكاية الفأر والجمل

اختطف فأر حقير بكفه زمام جمل، وسار به مراءً وجدلًا.

وسار الجمل معه من خفه حمله، فاغترّ الفأر، وقال: أنت بطل!

وسطع شعاع فكره على الجمل، فقال: سأبدي لك، فانتظر سعيدًا.

حتى أتيا إلى حافة قناة واسعة، يصبح الفيل الضخم ضعيفًا أمامها.

فوقف الفأر هناك وتيبس في مكانه، فقال الجمل: يا رفيق الصحراء والجبل..

ما هذا التوقف؟ ولماذا الحيرة؟ أخط، وانزل إلى القناة كالرجال.

إنك الدليل والحادي لي، فلا تقف وسط الطريق ولا تستسلم.

قال: هذا الماء مهول وعميق، وأنا أخاف الموضع الغريق، أيها الرفيق.

قال الجمل: فلأرَ أنا إذن هذا الماء، ووضع الجمل قدمه فيها سريعًا.

وقال: إنه حتى الركبة أيها الفأر الأعمى، فمن أين أُسقِط في يدك هكذا وغبت عن الوعي؟

قال: إنه بالنسبة لك نملة وبالنسبة لنا أفعى، فإن ثمة فرقًا بين ركبة وركبة.

فإن كان بالنسبة لك حتى الركبة يا كثير الفضل، فقد جاوز مني مفرق رأسي بمئة ذراع.

قال: لا تتوقح مرة أخرى، حتى لا يحترق جسمك وروحك من هذا الشرر.

وقم بالمراء مع أمثالك الفئران، ومع الجمل لا يكون للفأر كلام.

قال: لقد تبت، فمن أجل الله، أعبر بي هذا الماء المهلك.

وأحس الجمل بالشفقة، فقال: هيا، اقفز، واجلس على سنامي.

لقد صار هذا العبور سالمًا لي، وإني لأعبر بمئات الآلاف من أمثالك.

وما دمت لست بالنبي، انطلق في الطريق، فمتى تمضي من بئر الدنيا صوب الجاه.

وما دمت لست بالكامل، فلا تفتح حانوتًا وحدك، وما دمت لست لسانًا للحق، فكن أذنًا.

***

حكاية الغَزال والحَمِير

لقد صاد أحد الصيادين غزالًا، فوضعه في الحظيرة بلا رحمة.

وحبس الغزال في حظيرة مليئة بالحمر والبقر كما يفعل الظَلمة.

أخذ الغزال من خوفه يجري في كل صوب، وفي الليل وضع الصياد القش أمام الحمر.

ومن الجوع أخذ كل حمار وكل بقرة في رعي القش وكأنه أحلى من السكر.

وأخذ الغزال يسرع حينًا هنا وحينًا هناك، وحينًا كان يشيح بوجهه عن الدخان والغبار.

وكل من وضعوه مع ضده، "عاقبوه" بهذا العقاب على أنه مساو للموت.

حتى سيلمان قال سأسُومُ الهدهد أشد عذاب على تأخُرِه، عذابًا شديدًا يفوق الحسبان: وضعه في قفصٍ واحد مع غير جنسه.

الروح بازي والطبائع غربان، فهي في جراح من الغربان والبوم.

ظل ذلك الغزال حسن النافجة لعدةٍّ أيامٍ معذبًا في حظيرة الحمير.

كان مضطّربًا، يجود بالروح، كسمكة على اليابسة، فعندما يحبسا في صندوق صغير يعذبا البعر والمسك.

كان أحد الحمير يقول له: ها هو ذا أبو الوحوش، إن فيه طبع الملوك، والأمراء، فاصمت.

وكان آخر يسخر قائلًا: لقد أتى من الجزر والمد بجوهرة غالية، فمتى يبيعها رخيصة؟

وطفق حمار ثالث يقول: بهذه الرقة التي فيك، امض إلى سرير الملك، وقل: أين المتكأ؟

وحمار رابع أتخم حتى عجز عن الوعي، فأخذ ينادي الغزالَ داعيًا إياه إلى الطعام.

فهزّ رأسه بما يعني: لا، اذهب عني يا فلان، لا شهية عندي، ولا أقدر.

قال الحمار: أعلم أنك تسوق الدلال، أو نك تتجنب الطعام تكبرًا عليه.

فقال الغزال لنفسه: إن هذا هو طعامك، فمنه تتجدد أعضاء جسدك، وتحيا.

لقد كنت أليفًا للمروج، وكنت مرفّهًا في الرياض، و"إلى جوار" الماء الزلال.

فإذا كان القضاء قد ألقى بي في العذاب، فمتى تمضي عني تلك الجبلة، وهذا الطبع الطيب؟

وإن كنت قد صرت شحاذًا، متى أصبح ملحاحًا سمجا؟ وإن كانت ملابسي قد خلقت، فأنا لا زلت جديدًا نضرًا.

ولقد رعيت السنبل والشقائق والريحان، مع الزهد فيها، وأضعاف هذا الدلال.

قال الحمار: هيا، أنفج علينا نفاجًا شديدًا، ففي الغربة يمكن الادّعاء الذي لا يستند على دليل.

قال الغزال: إن نافجتي في حد ذاتها شاهد عليّ، فإنها تزري بالعود والعنبر.

لكن متى يشمها صاحب شم؟ لقد صارت حرامًا على الحمار عابد البعر.

إن الحمار يشم بول الحمار على الطريق، فكيف أعرض المسك علي هذا الفريق؟

خلاصة الحكاية: عن جوهر الروح التي تحدث الفارق بين الغزال والحمار، الذي لا يصل إدراكه لجمالياتها.

***

حكاية الرجل الظمآن

كان الماء غورًا فتسلّق ذلك الظمآن شجرة الجوز، وأخذ يلقى الجوز فيه.

وكان الجوز يسقط من فوق شجرته في الماء، وكان صوت ذلك السقوط يبلغ مسمعه، ويرى الحباب.

فقال له أحد العقلاء: أقلع عن هذا الأمر أيها الفتى، إن الجوز في حد ذاته يصيبك بالظمأ.

فكلما كثر سقوط الثمر في الماء، ابتعد عنك الماء وغار أكثر.

وحتى تنزل أنت من علٍ بكل مشقة، يكون ماء الجدول قد حملها بعيدًا عنك.

قال: ما إلى هذا قصدت من إلقاء الجوز، أنظر بعمقٍ أكبر ولا تقف عند الظاهر.

إنما أقصد أن أسمع صوت الماء وأرى هذا الحباب على سطحه.

وأيُّ عمل للظمآن في هذا العالم إلا أن يطوف دائمًا بجوار حوض الماء؟!

والطواف حول النهر وحول الماء وخرير الماء، كالحاج الطائف حول كعبة الصواب.

وكذلك مقصودي من هذا المثنوي* هو أنت يا ضياء الحق ويا حسام الدين.

فالمثنوي بأصوله وفروعه كله لك وقد جعلته (أنت) كله مقبولًا.

* مثنوي – مولانا جلال الدين الرومي، إبراهيم الدسوقي ستا، المجلس الأعلى للثقافة.



الفهرس